لحظات ساكنة

عبد الملك القاسم

مصدر هذه المادة:






المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد: فلقد كان للجانب المادي الذي سيطر على حياة الناس دورٌ كبير في بُعدِهم عن التفكُّر في مآلهم ومصيرهم، وتبعًا لذلك ضعفت الهمم، وخارت العزائم، وكثر البعد عن الله- جلَّ وعلا- . وقد يسر الله لي الاطلاع على بعض أخبار الزُّهد وأحاديث الرقائق التي جمعها علماء الأمة في مجلدات ضخمة، بعضها في كتب مستقلة والكثير منثور في كتب السير والتراجم وغيرها، وصَعُب الانتفاع بها لضخامة تلك المجلدات وبُعدها عن متناول الناس، كما أن بعضها اشتمل على بعض المبالغات والغلو في المخلوقين، وكذلك ما كان فيها من شطحات وخرافات الصوفية وغيرهم. وقد عمدت إلى جمع هذه المجموعات من بطون الكتب، وأرجعتها إلى مصادرها، رغبةً في توثيقها، ومساعدةً لمن أراد الاستزادة.

واخترت لهذه السلسلة- التي تتجاوز العشرين مجموعة [(١)]- عنوانًا مأخوذًا من قول للإمام أحمد عندما ذُكر عنده أخلاق الورعين فقال:

---

(١) متنوعة: المواضيع- في العبادات والمعاملات والآداب، والأولى منها بين يديك.

«اسأل الله أن لا يمقتنا»، أين نحن من هؤلاء؟[١].

واقتصرت على أخبار السلف- من غير الروايات المشهورة - وإلا فهناك الكثير منها، وما أنا وإيَّاهم إلا كما قال الإمام الشافعي:

أحـــبُّ الصَّـــالحين ولســـت مـــنهم
لعلـــــي أن أنال بهـــــم شــــــفاعة
وأكـــره مـــن تجارتـــه المعاصـــي
ولـــو كنَّـــا ســـواء في البضـــاعة

«الشافعي»

ولا تستغرب أخي القارئ مما في هذه المجموعات من زهد السَّلف وصلاحهم، وما وقع لهم من النشاط في العبادة؛ حيث إنَّهم بلغوا منزلةً كبيرةً في الخوف من الله والزُّهد والتَّقوى، ومن ثم ضعفنا في هذا الزمن ضعفًا كبيرًا، فأصبحنا نستغرب هذا ونستكثره. وفي الجملة فإن خير الهدى هدي محمَّدٍ ﷺ ، وما خالف هديه يُرَدُّ على صاحبه.

وهذا الكتاب فيه تنشيطٌ للعبادة، وتذكيرٌ بالآخرة، وتعريفٌ بالصَّالحين. جعله الله خالصًا لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم
abdalmalik@dar-alqassem.com

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦).

الوقفة الأولى:

الموت

قيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نُجالس أقوامًا يخوِّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله، إنَّك إن تخالط أقوامًا يخوفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أوقوامًا يؤمِّنونك حتى يدركك الخوف.

الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حيٍّ، فلا يملك لها ردًا، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعًا، وهي تتكرر في كلِّ لحظةٍ، وتتعاقب على مرِّ الأزمنة، يواجهها الجميع صغارًا وكبارًا، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله- تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة، فالجميع يموت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلا أنَّ المصير بعد ذلك مختلفٌ: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

وقد خلق الله الموت والحياة لشأنٍ عظيم وأمر جسيم، فقال- تعالى-: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]. وقد وصف سبحانه- وتعالى- شدَّة الموت في أربع آيات:

الأولى: قوله الحق: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: قوله الحق: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله- تعالى-: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ [القيامة: ٢٦][١].

ولِعِظم ما نحن مقدمون عليه وصائرون إليه قال رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»[٢].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٢٠.

(٢) متفق عليه.

ففي الموت عِظةٌ وتذكير، وتنبيه وتحذير، وكفى به- والله- من نذيرٍ؛ قال ﷺ: «**كفى بالموت واعظًا**»[١].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، فإن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنَّه الحادث الأهدم للذّات، والأقطع للرَّاحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يُقَطِّعُ أوصالك، ويُفَرِّقُ أعضاءك، ويَهدِم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم[٢].

ولكنا نسيناه أو تناسيناه، وكرهنا ذِكره ولُقياه، مع يقيننا أنه لا محالة واقع وحاصل، ولا مفر منه ولا حائل، والعجبُ من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه، كيف يطيب عيشه؟ خصوصًا إذا علت سنُّه، واعجبًا لمن يرى الأفاعي تدبُ إليه وهو لا ينزعج، أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه، قد أخرج سكين القوى، وأنزل متغشرم الضعف، وقُلِبَ السَّواد بياضًا، ثم في كل يوم يزيد النَّقص[٣].

وهذا النقص يزداد حتى يعبر قنطرة الموت التي لابد من المرور عليها حتى يصل إلى الدار الآخرة.

قال ابن مسعود: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله»[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني وابن عساكر في تعزية المسلم.

(٢) التذكرة، ص ٢٨.

(٣) صيد الخاطر، ص ٥٣٣.

(٤) شرح الصدور، ص٤.

ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت وتجرُّع غُصصه وآلامه، ولكننا غفلنا عنه؛ لأن المنهمك في الدنيا، والمكبُّ على غرورها، المحبُّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه، ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الجمعة: ٨].

وأين ذهَبْتَ فهو ملاقيك، ومهما ابتعدت فهو مناديك. ولكن:

استعدي يا نفس للموت واسعي
لنجاةٍ فالحازم المُستَعدُّ
قد تبيَّنتِ أنَّه ليس للحيّ
خلودٌ ولا من الموتِ بُعدُّ[2]

أخي الحبيب:

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خُبِّئ لك.

تغترُّ بصحتك، وتنسى دُنُوَّ السُّقم، وتفرح بعافيتك غافلًا عن قرب الألم.

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٧).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦).

لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَكَ، وأبدى مضجَعُ سواك- قبل الممات- مضجعَكَ.

وقد شغلك نَيلُ لذاتك، عن ذكرِ خرابِ ذاتك:

كأنَّكَ لَمْ تَسْمَع بأخبارِ مَنْ مَضَى

ولم تَر في الباقين ما يصنع الدَّهْرُ!

فإنْ كُنت لا تَدرْي فَتلكَ ديارُهم

محاها مَجَالُ الرِّيح بَعدكَ والقَبْرُ(١)

نسمع ذكر الموت وننسى، ونرى العِبرِ تترى، ولا أحد منا يخشى إلا من رحم ربِّي.

وهناك من لم تُلهِه الدُّنيا، ويغرُّه طول الأمل، فاستعد بترك الذُّنوب، وتجهَّز بالعمل الصَّالح كالقعقاع بن حكيم الذي قال: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببتُ تأخير شيٍ عن شيءٍ»(٢).

ونحن دهانا مجرد ذكر الموت والحديث فيه، بل الكثير يغضب إذا ذُكر الموت، ويرى أنه لا داعي لتكدير حياة الناس، وإفساد مجالسهم بذكر الموت وعِبَرِه.

---

(١) صيد الخاطر ص ٢٦.

(٢) الإحياء (٤/ ٤٨٤).

وقد قيل للحسن: يا أبا سعيدٍ، كيف نَصنع؟ نُجالس أقوامًا يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوّفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقوامًا يؤمّنونك حتى يدركك الخوف(١).

وإذا لم تتذكر هذا اليوم، وتستعد له، فاجأك في غدك وأنت في غفلةٍ من أمرك. واعتبر بمن استعدَّ ورحل.

قال الحسن: «كان من كان قبلكم يقربون هذا الأمر، كان أحدهم يأخذ ماءً لوضوئه ثمَّ يتنحى لحاجته؛ مخافة أن يأتيه أمر الله وهو على غير طهارةٍ، فإذا فرغ توضَّأ»(٢).

قد قُلتُ: إذا مدحوا الحياة فأكْثِروا
في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرف(٣)

قال الربيع بن بزة: «عجبت للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حقٍّ، تراه عيونهم، تشهد عليه معاقد قلوبهم إيمانًا وتصديقًا بما جاء به المرسلون، ثمَّ هاهم في غفلةٍ عنه سكارى يلعبون!».

---

(١) الإحياء (٤/ ١٧٠).
(٢) الزهد لابن المبارك، ص ٩٩.
(٣) العزلة، ص ٨١.

ثمَّ يقول: وايم الله، ما تلك الغفلة إلا رحمةٌ من الله ونعمةٌ من الله عليهم، ولولا ذلك لألفي المؤمنون طائشة عقولهم، طائرة أفئدتهم، منخلعة قلوبهم، لا ينتفعون مع ذكر الموت بعيشٍ أبدًا[١].

وهو كما قال القائل:

سبيلُ الخلقِ كلِّهم الفناءُ
فما أحدٌ يدوم له البقاءُ
يقربنا الصَّباحُ إلى المنايا
ويدنينا إليهن المساءُ
فلا تركب هواك وكن مُعِدًّا
فليس مقدرًا لك ما تشاءُ
تراه أخضر العيدان غضًّا
فيصبح وهو مسود غثاءُ
أتأمل أن تعيش وأيُّ غُصنٍ
على الأيام طال له النَّماءُ[٢]

نعم- والله- حتى ملك الموت، الموكَّل يقبض الأرواح، سيموت، قال- تعالى-: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٣).

(٢) البصرة (١/ ٣٥٣).

الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ولكن أين الاتعاظ والتَّذكُّر لهذا اليوم، مثل تذكُّر السَّلف الصَّالح واتِّعاظهم وتفكُّرهم في مآلهم؟

فقد قال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: اتَّكأ مالك بن دينار ليلةً من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في البحر، فلمَّا أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصليًا ولا داعيًا، قال: فبكى، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غدًا ما لذُّوا بعيشٍ أبدًا، إنِّي- والله لما رأيتُ الليل وهوله وشدَّة سواده، ذكرت به الموقف وشدَّة الأمر هناكَ، وكل أمريٍ يومئذٍ تهمُّه نفسه، لا يغني والدٌ عن ولدٍ ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئًا، ثمَّ شهق شهقةً فلم يزل يضرب ما شاء الله، ثمَّ هدأ، فحمل عليَّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنَّه لا يحمل الذِّكر فلِمَ تُهيجه؟ قال:

فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئًا[1].

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أَمِنَ غدًا بحُسن اتِّعاظه وصلاح عمله، فإنَّنا في دارٍ أفسح الله لنا فيها بالنِّعم التي يسبغها علينا صباحَ مساءَ، ونحن نُضيع أعمارنا في غير ما خُلقنا له، ثمَّ إذا فاجأنا الموت صرخ البعض: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود؟

---

(١) جنة الرضا (١/ ٩٨).

﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عَنْ هذا اليوم؟ ألا تعلم وأنت في سعةٍ من أمرك وصحَّةٍ في بدنك؟ لم يَدنُ منك ملك الموت بعد؟

فإنَّ الله- تعالى- جعل الموت محتومًا على جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصَّحيح، وعافى السَّقيم، وقسَّم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين: دار النَّعيم ودار الجحيم، فلا مفرَّ لأحدٍ من الموت ولا أمان؛ لقوله- تعالى-: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فسوَّى فيه بين الحُرِّ والعبد، والصَّغير والكبير، والغنيّ والفقير، وكلُّ ذلك بتقدير العليم الخبير: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

فالكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوْت، والمسلم من استسلم للقضاء والقدَر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثَّواب على المصائب والضَّرر[(١)].

تذكَّر يوم تأتي الله فردًا
وقد نُصبت موازين القضاءُ
وهُتكت السُّتور عن المعاصي

(١) صيد الخاطر ص ٨.

وجـاء الـذَّنب فانكشـف الغطـاءُ[١]

قال بعضهم: «عجبًا لِمَنْ يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟ وعجبًا لمِنْ يعرف أن النار حق، كيف يضحك؟ وعجبًا لِمَنْ رأى تقلُّب الدُّنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجبًا لمن يعلم أنَّ القدر حقٌّ، كيف ينصب؟»[٢].

نرى باب الموت مفتوحًا والقبور تزيد. ها هو كل يوم يطرقنا وفي كل لحظة يُنذرنا. ولكن هل سألنا أنفسنا ما هي دارنا الثانية ونحن نعلم أن:

المـوتُ بابٌ وكـلُّ النَّـاس داخلـه
يا ليـت شـعري بعـد المـوت مـا الـدَّارُ
الـدَّار جنَّـة خلـدٍ إن عملـت بمـا
يُرضـي الإلـه وإن قصَّـرت فالنَّـارُ[٣]

فإن أنت تذكَّرت وانخلع قلبك فإنَّه إلى صلاحٍ وفلاحٍ كما قال الدَّقاق: «مَنْ أكثرَ من ذكر الموت أُكْرِمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عُوقِبَ بثلاثة أشياء: تسويف التَّوبة، وترك الرِّضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

---

(١) التذكرة، ص ٣٦٥.

(٢) مكاشفة القلوب، ص ١٥٧.

(٣) ديوان أبي العتاهية، ص ٨٦٨.

وهذا ما نراه في واقع حياتنا، فلا نذكر الموت إلا عند حدوث الفاجعة ونزول النَّازلة، بل إنَّه إذا ذُكِرَ أنَّ فلانًا قد مات استرجعنا الذَّاكرة، وكأن الموت طريق فلانٍ وحده، ولذلك نحزن عليه، ولا نرى ما سيحلُّ بنا غدًا أو بعد غدٍ.

فإنَّ مَنْ تفكَّر من عواقب الدُّنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطَّريق تأهَّب للسَّفر.

إني أرقتُ وذِكْرُ الموتِ أرَّقني
فقلت للدمع أسعدني فأسعدني
إنْ لم أبكِ لنفسي مُشعرًا حزنًا
قبلَ المماتِ ولم أرق لها فمن
يا من يموت ولم تحزنه ميتته
ومَنْ يموت فما أولاه بالحزنِ
إنِّي لأرقع أثوابي ويخلقها
حدب الزَّمان لها بالوهنِ والعفنِ
لِمَنْ أُثْمِرُ أموالي وأجمعُها
لِمَنْ أُروح لَمَنْ أغدو لِمَنْ لِمَنْ
لِمَنْ سيوقع بي لحدي ويتركني
تحت الثَّرى تَرب الخدين والذَّقنِ[1]

(١) محاسبة النفس، ص ٨٧، والمدهش، ص١٨٣.

أيُّها الحبيب:

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أهل القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس بآتٍ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكِّرات له، والنظر في المنبهات عليه(١).

وهاك أخي الحبيب(٢) وصية يحيى بن معاذ: «لا تكن ممَّن يفضحه يوم موته ميراثُه ويوم حشره ميزانُه»(٣).

ومن هذا الخوف العظيم والوجل المستمر كان محمد بن النضر إذا ذُكر الموت اضربت مفاصله حتى تبيَّن الرَّعدة منها.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيًا

والقوم حولك يضحكون سرورًا

فاعمل ليومٍ أن تكون إذا بكوا

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٥).

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

(٣) التذكرة للقرطبي، ص ١٠٢.

في يــوم موتــك ضــاحكًا مســـرورًا[1]

فابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، واحمل نفسك على الطَّاعة قبل أن تُحمل على الرِّقاب، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب.

لحظاتٌ قليلة تحاسب نفسك فيها خيرٌ من أيام ضائعة تؤخذ بما فيها.

قال عبد الله بن مشيط: «سمعت أبي يقول: أيُّها المغترُّ بطول صحَّته، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا قط غرَّة؟ أبالصِّحَّة تغترُّون؟ أم بطول الأمل تأمنون؟ أم على الموت تجترئون؟».

إنَّ ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أنَّ ساعة الموت ذات كربٍ شديدٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريط؟ ثم يقول: رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت.

ومن أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنَّه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يُحدُّ، ويتلهَّف على زمانه الماضي، ويودُّ لو تُرِكَ؛ كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه بالأسف.

هــو المــوتُ مــا منــه مــلاذٌ ومهــربٌ

مــتى حُــط ذا عــن نعشــه ذاك يركَــبُ

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢٠٣.

نؤمِّــــل آمــــالًا ونرجــــو نتاجهـــا
وعــــل الـــرَّدى ممَّـــا نرجيـــه أقـــربُ

وما نراه في المقابر أعظم عظة وأكبر معتبر، فحاملُ الجنازةِ اليومَ محمولٌ غدًا، ومن يرجع من المقبرة إلى بيته اليوم سيُرجعُ عنه غدًا، ويترك وحيدًا فريدًا، مُرتهنًا بعمله، فإن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌّ.

ولكن ما أقلَّ من اتَّعظ! وما أندر من اجتهد!.

قال ثابت البناني: «طوبي لمن ذكر ساعة الموت، وما أكثر عبدٌ ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله»(١).

فإنَّ مَنْ أيقن بالموت غدًا عمل يومه كلَّه في طاعة الله- عزَّ وجلَّ- ، وهكذا يومًا بعد يوم حتى يأتيه اليقين مصداقًا لقوله:

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

عن أنس ﷺ قال: خطَّ النَّبيُّ ﷺ خطوطًا فقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب**» [رواه البخاري].

فذكرُ الموت، وإنْ كدَّر عليك أيامك وبعثر أحلامك، إلا أنَّه يوقفك على حقيقةٍ لا مفرَّ منها.

وأذكـــر المـــوت تجــد راحـــةً

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٢٦).

في أذكـــار المـــوتِ تقصـــير الأمـــل[١]

فـإنَّ مَـنْ قَصُـرَ أملـه، وجعـل المـوت أمـام ناظريـه عَمِـل للآخـرة، واستفاد من كلِّ لحظة من لحظات عمرة في طاعة الله، وتحسَّر على كلِّ وقتٍ أضاعه بدون عملٍ صالحٍ يقرِّبه إلى الله زلفى، وهو لما قدَّم فرحٌ مسرورٌ بالانتقال إلى الدَّار الآخرة.

ولذلك قال خالد بن معدان: «ما أُحب أنَّ دابةً في برٍّ ولا بحرٍ تفيديني من الموت، ولو كان الموت غايةً يُسبق إليها، ما سبقني أحد إلا سابقٌ يسبقني إليها بفضل قوته»[٢].

وهـذا كلُّه طمـعٌ في جنَّـةٍ عرضـها السَّـماوات والأرض، ورغبـةٌ في لقـاء الله- عزَّ وجلَّ- وفرحٌ بما قدم من الأعمال الصالحة التي ينتظره جزاؤها وثوابها مع رحمة الله.

وعلى الرَّغم من الحرص على لقـاء الله- جلَّ وعـلا- والفـرح بمـا عنده للمؤمنين الموحدين، فقد قال الحسن: «لا تخرج نفس ابن آدم مـن الـدُّنيا إلا بحسـراتٍ ثـلاث: أنَّـه لم يشْـبع، ولم يـدرك مـا أمَّـل، ولم يحسن الزَّاد لما قدم عليه»[٣].

ومـــا المـــرء إلا راكـــب ظهـــرِ عمـــرِه
علـــى ســـفر يفنيـــه باليـــوم والشـــهرِ

---

(١) التذكرة للقرطبي، ص ١٠.

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢١٠).

(٣) مكاشفة القلوب ١٥٨.

يبيـــت ويُضـــحي كـــلَّ يـــوم وليلـــةٍ

بعيـــدًا عـــن الـــدُّنيا قريبًـــا إلى القـــبرِ

والقبر هو المنزل الثَّاني بعد منازل الدُّنيا، فكيف بنا أهملنا بنيانه، وقوَّضنا أركانه؟ وليس بيننا وبين الانتقال إليه إلا أنْ يقال: مات فلان. فكم نحمل كل يوم إلى تلك المنازل من الأحباب والأصحاب، وكأنَّ هذا الموت لا يطرق إلا أبوابهم، ولا يقضُّ إلا مضاجعهم، أمَّا نحن فلا!!

قال الحسن- رحمه الله-: «ما رأيت يقينًا أشبه بالشَّكِّ من يقين النَّاس بالموت، مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقًا أشبه بالكذب من قولهم: إنَّا نطلب الجنَّة، مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها»[1].

نســـير إلى الآجـــالِ في كـــلِّ لحظـــةٍ

وأيامنـــا تطـــوى وهُـــنَّ مراحـــلُ

ولم أر مثـــل المـــوت حقًّـــا كأنَّـــه

إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني باطـــلُ

ومـا أقـبح التَّفـريط في زمـن الصِّـبا

فكيـف بـه والشـيب للـرأس شـاعلُ؟

ترحـل مـن الـدُّنيا بـزادٍ مـن التُّقـى

(١) العاقبة، ص ٩٥.

فعمـــــرك أيامٌ وهـــــن قلائـــــلُ(١)

فـانظر إلى هـذه الطَّريـق الحرجـة، والمسـلك الشَّـاق، والقنطـرة المضـطربة، والعقبـة الكـؤود، الَّـتي لا تثبـت عليهـا الأقـدام، ولا تجوزهـا الأوهام، ولا يثبت عليها إلا من ثبَّته الله بالقول الثَّابت، وثبَّت قدماه يوم تزلُّ الأقدام(٢).

قال عمار بن ياسر: «كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلًا»(٣).

فلمن تذكَّر الموت، وخاف الفوت، كفته العبادة شُغلًا؛ استعدادًا لطـارقٍ يطرق على غفلـةٍ، ويفجـع على فـرحٍ، لا يعـرف الأمـير مـن الوضيع، ولا يفرق بين الكبير والرَّضيع، بل كلُّهم سواءٌ، فمن حانت منيته فهو صاحبه، ومن قَرُب أجله فهو بغيته.

ليـــت شـــعري فـــإنِّي لســـت أدري

أي يـــومٍ يكـــون آخـــر عمـــري

وبأي الـــبلاد تُقـــبض روحـــي

وبأيِّ الـــبلاد يُحفـــر قـــبري(٤)

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٤.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص٢٣٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٣٥٣، والزهد، ص ٢٥٧.

(٤) ديوان أبي العتاهية، ص ١٧٢.

ما أطولها من غفلة! نحن في ليلها نائمون. وفي نهارها سارحون، كما قال إبرهيم بن أدهم: «قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطيةٍ، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسُّرور بالمدح؛ فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخطٌ، والسَّاخط معذَّبٌ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجبٌ، والمعجب يحبط عمله[1]».

وتذكُّر الموت يغرس في المؤمن شجرة الإخلاص، وثمرتها العمل، فالأيام تُطوى، والمراحل تُقضى، فمن جعل هذا حاديه شمَّر وفزِع، وجعل مطيته تسير به إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

قال صلة بن اشيم لمعاذة: «ليكن شعاركِ الموت؛ فإنَّك لا تبالين على يسيرٍ أصبحت من الدنيا أم على عسر».

فإنَّ من تذكَّر الموت هانت عنده الدُّنيا ومصائبها، وزهد في أموالها وذهبها، وفرشها وسررها؛ لأنَّه علم أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، ولهذا فهو عالي الهمة، قوي العزيمة، لا تقدم عنده الدنيا شيئًا ولا تؤخر إلا ما كان منها في عملٍ صالح موافق لما جاء به ﷺ بعيدًا عن الرِّياء والسُّمعة. ولماذا يرائي ويفتخر وهناك من ينتظره؟

قال الحارث بن إدريس: «قلت لداود الطَّائي: أوصني، فقال: عسكُر الموت ينتظرونك»[2].

---

(١) الإحياء (٤/ ٢٣٦).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٤١).

فالمرء منذ أن يخرج من بطن أمه وملك الموت ينتظر أجله متى يحين؛ حتى يقبض روحه، ولذلك قال عون بن عبد الله: «ما أنزل الموت منزلته من عدّ غدًا من أجله، فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يُدركه. إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لبغضتم الأمل وغروره»[(١)].

وهذا الأمل هو سبب التَّهاون والتَّكاسل، فكم من مؤمِّلٍ غدًا لتوبته مات قبل أن يتوب، وكم من قائل بعد كذا سأتوب، جاءه الموت قبل ذلك.

قال أبو الدرداء: «من أكثر من ذكر الموت قلَّ فرحه، وقلَّ حسده»[(٢)].

لأن من ذكر تلك النهايات وجعلها بين عينيه، فعَلَامَ يفرح؟! ولماذا يحسد؟! وهو يذكر تلك الأهوال والانقطاع من الدنيا، وهو في حالٍ كما وصفها بعضهم بقوله: «أنا كرجلٍ مادٍّ عنقه، والسيف عليه ينتظر متى يضرب عنقه[(٣)]».

وهذا السيف ليس بخافٍ علينا، فإننا نراه كل يوم يهوي على حبيب وقريب وصاحب، ليقطع اتصاله بالدنيا ويبعده عن أحبَّته

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٥، وصفة الصفوة (٣/ ١٠٣)، وشرح الصدور ص ٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٣).

(٣) الإحياء (٤/ ٤٨٣).

ورفقته. ونحن أمهل الله لنا في العمر، ولكن الإهمال إلى أجلٍ معلوم، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

كـأنَّ المنـايا قـد قصـدن إليكـا
يُردنـك فـانظر مـالهن لـديكا
سـيأتيك يـومٌ لسـت فيـه بمكـرمٍ
بأكثـر مـن حثـو الـتراب عليكـا[١]

فأنت يا أخي الكريم في سفرٍ منذ بزوغ فجر دنياك ولكن:

ومـا تـدري وإن أجمعـت أمـرًا
بأي الأرض يـدركك المقيـلُ

فهل تجهَّزت لهذا المقيل؟ واستعددت لهذا الرَّحيل؟ فهو- والله- خطبٌ جليلٌ، وأمرٌ مهيلٌ، وقد قال عمر بن عبد العزيز: «من قَرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه»[٢].

وذلك من الأعمال الصَّالحة؛ استعدادًا لدارٍ ترحل إليها وحيدًا، لا مال ولا جاه ولا منصب، ولا أحباب هناك ولا أصحاب، وحيدًا في قبرك، حتى أقرب الناس إليك لا يؤنس وحشتك.

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٠١.

(٢) شرح الصدور، ص ٢١.

كان بلال بن سعد يقول في وعظه: «يا أهل الخلود ويا أهل البقاء.. إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما خُلِقْتُم للخلود والأبد، وإنَّكم تنقلون من دارٍ إلى دار»[1].

ولهذه النقلة من الآلام والشدائد ما الله به عليم، كما قال أنس بن مالك: «لم يلقَ ابن آدم شدة قط منذ خلقه الله أشدَّ عليه من الموت»[2].

ومن هذه الأهوال نفكر في الهروب ونطرق جميع الدروب، ولكن:

فهُنَّ المنايا أي وادٍ حللته

عليها القدوم أو عليك ستقدم

أخي الحبيب:

لا تغرَّنَّك الصحَّة والقوة والعافية، ولا يغرنَّك الشَّباب وكلام الأصحاب.

لا يغرنَّك عِشاء ساكنٌ

قد يوافي بالمنيات السَّحر[3]

قد يأخذك على حين غفلة من أمرك، وأنت لا ترى الموت يصل إليك قريبًا، بل تراه بعيدًا وبعيدًا جدًا. فلا يغلب على تفكيرك حصوله حتى تصيبك سهامه، وتؤلمك سكراته.

---

(١) شرح الصدور، ص ٢١.

(٢) شرح الصدور، ص ٣٤.

(٣) تاريخ عمر، ص ٢٠٨.

قال أبو الدَّرداء: «أُحبُّ الفقر؛ تواضعًا لربِّي، وأحبُّ الموت؛ اشتياقًا لربِّي، وأحبُّ المرض؛ تكفيرًا لخطيئتي»(١).

ونحن نرى الغبطة في كثرة الدنيا وزينتها. أما سلفنا الصالح- رضوان الله عليهم- فَلْنَرَ على ماذا كانوا يغبطون؟

قال مسروق: «ما غبطت شيئًا بشيء كمؤمن في لحده، قد أمن من عذاب الله، واستراح من أذى الدنيا»(٢).

فإننا- والله- في دارة فتنة وابتلاء، وليس لنا إلا أن نلهج بالدعاء إلى الله بأن يقينا الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وبالثبات على دينه، والعمل على طاعته؛ فإنَّها سنوات معدودة.

فمن أمدَّ الله في عمره وتخطَّاه الموت في سني الصِّبا والشَّباب، فسيأتيه الشَّيب نذير الموت.

تقول النَّفس غيِّر لون هذا
عساك تطيب في عمرٍ يسيرٍ
فقلت لها المشيب نذير عمري
ولست مُسودًا وجه النَّذير(٣)

فإنَّ هذا الشَّيب شهادةٌ له.

---

(١) شرح الصدور، ص ١٥.

(٢) شرح الصدور، ص ١٧.

(٣) شرح الصدور، ص ٤٧.

وهذا البياض الذي نهابه ونخافه قال عنه ﷺ: «**من شاب في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة**»[١]. ألا فليحمدِ الله من أمدَّ الله في عمره حتى رأى بياض الشعر في رأسه ولحيته، وليعد إلى الله عودًا حميدًا، فكم من الأقران وُسِّدوا لحود القبور منذ عشرات السنين وأنت أمهل الله لك في عمرك، تصلي، وتصوم، وتدعو، وتستغفر حتى اليوم. فكم من عملٍ صالحٍ عملت، وكم استغفار عن ذنب استغفرت.

رأيت الشيب من نُذر المنايا
لصاحبه وحسبك من نذير[٢]

وحسبك- إن شاء الله- أنه عمرٌ مديد في عملٍ صالح تجده يوم القيامة ذخرًا لك. كما كان سفيان الثوري يقول: «عند الصَّباح يَحمد القوم السُّرى، وعند الممات يحمدُ القوم التُقى»[٣].

فما هي إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي
ويذهب هذا كلُّه ويزول[٤]

فالدُّنيا كالحلم تمرُّ مَرَّ السَّحاب، ساعة من زمنٍ ثمَّ تنقضي، ألا إنَّها- يا أخي- رحلةٌ بدأت وستنتهي.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة.

(٢) التذكرة، ص ٤٦.

(٣) الإحياء (٤/ ٤٣٥).

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ٢٠.

أخـــيَّ لا تـــذهب بـــك المـــذاهب
أظلَّـــك المـــوت وأنـــت لاعـــب
أخـــيَّ إن المـــوت قـــد أظلـــك
هَلَّـــكَ أن تعـــني بـــه لعلـــك

قال خليد العصري: «كلُّنا قد أيقن بالموت ما نرى له مستعدًّا، وكلُّنا قد أيقن بالجنَّة، ولا نرى له عاملًا، وكلُّنا قد أيقن بالنَّار، وما نرى لها خائفًا، فعلامَ ما تعرجون، وما عسيتم تنتظرون؟ الموت. فهو أول وارد عليكم في الله بخير أو شر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا»(١).

ولا ريب أن مما يوقظ الهمم ويقوي العزائم ذكر هادم اللذات...
والتفكر في مآل من سبق.
ولذلك .. يا أخي:

اعمـد لنفسـك واذكـر سـاعة الأجـل
ولا تُغَـــرَّنَّ في دنيـــاك بالأمـــل
سابِق حتوفَ الرَّدى واعمل على مهل
مـا دمـت في هـذه الـدُّنيا علـى مِهـلِ(٢)

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٣١).
(٢) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٦١.

فإن الدنيا دار ممر لا دار مقر، فكم رحل عنها الأجداد والآباء والأبناء. رحل عنها الرؤساء والوزراء. لن يبقى على وجه الأرض منهم أحد. من يجري على ظهرها. سيكون غدًا في باطنها.

كــــلُّ حــــيٍّ إلى الفنــــاء يــــؤول

فتـــــــزوَّد إنَّ المقـــــــام قليـــــــلُ

نحــــن في دار غربــــةٍ كــــلُّ يــــومٍ

ينقضــــي جيــــلٌ ويحــــدث جيــــلُ

فمن تخطَّاه الموت في زمن الصِّبا والشَّباب، ومدَّ الله في عمره، تحوَّلت قوته إلى ضعف وشدة حركته إلى سكون، وتلك الصحة إلى أسقام وأوجاع. ولكن تنبه يا غافلًا عن الموت؛ فهو يسير إليك وأنت نائم عنه، فلربما فاجأك وأنت بكامل الصحة والعافية؛ تجاهر الله بالمعاصي، وتغفل عن الطاعات، وتهجر النوافل، وتترك العبادات!

يا راقــــدَ الليــــل مســــرورًا بأوَّلــــه

إنَّ الحــــوادث قــــد يطــــرقن أســــحارًا

لا تفــــرحنَّ بليــــلٍ طــــاب أولــــه

فَــــرُبَّ آخــــر ليــــل أجــــج النَّــــارا

عــادت تــرابًا أكــفُّ المُليهــات وقــد

كانــــت تحــــرك عيــــدانًا وأوتارا[1]

(١) طبقات الحنابلة (٤/ ١٩٢).

سُئل الحسن ﷺ : «يا أبا سعيد، كيف رأيت حالك؟ فقال: حال من ينتظر الموت إذا أمسى، وإذا أصبح لا يدري هل يُمسي؟ وكيف يموت؟»

فما أبلغه من جوابٍ! وما أعظمه من استعداد! ونحن منذ خروجنا إلى الدنيا نعلم أن الموت يترصَّدنا في كل ناحية وبقعةٍ، ولكنَّنا نغفل عن هذا!. والدنيا كيوم من نهار، فلو قيل للحي في نهاره- الذي هو عمرك في هذه الدنيا-: إنَّ هناك عدوًا سيخرج عليك في أيِّ لحظة من هذا اليوم، لاستعددت له ولتجهزت لفجأته، فهذه الدنيا وهذا الموت بماذا استعددت له؟ وبماذا تجهزت؟

قال مطرف بن عبد الله بن الشَّخير: «إنَّ هذا الموت نغَّص على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه، فكيف ووراءه يومٌ يُعدم فيه الجواب، وتدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه الأقلام والكتاب، ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب»[١].

فلعل الموعظة تقع في قلوبنا موقعًا حسنًا، ونعود إلى الله عودًا سريعًا، فما أفرح الله- جلَّ وعلَّا- بعودة المذنب وإقبال التَّائبَ.

تزوَّد قرينًا من فعالك إنَّما

قرين الفتى في القبر ما كان يعملُ

ألا إنَّما الإنسان ضيفٌ لأهله

(١) العاقبة، ص ٢٦.

يقـــيم قلـــيلًا عنـــدهم ثمَّ يرحـــلُ

ويا أخي:

اعلم أنَّ الموت قادمٌ وخطره عظيم، وغفل عنه النَّاس لقلَّة حديثهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكَّر إلا فيه(١).

عن حميد قال: «بينما الحسن في المسجد تنفَّس تنفسًا شديدًا، ثم بكى حتى أرعدت منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخّض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيومٍ قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة»(٢).

وفسَّر ذلك التَّلاهي وهذا التشاغل أبو سعيد بن عبد الرحمن عندما قال: «إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها»(٣).

فلو توقف الإنسان عن الجري واللهث، وتفكر في القبر واللحد وما بعدهما، لما هنأ بعيش، ولما قامت المصالح، ولما عمرت الأسواق،

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٩).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٣٤).

(٣) الإحياء (٢٨٢).

ولكن الله- سبحانه وتعالى- مَنَّ علينا بالنِّسيان رحمة منه، ولهذا يُنبه السَّاهي ويُذكر الغافل.

يا ساهيًا يا غافلًا عمَّا يُراد له
حان الرَّحيل فما أعددت من زاد
تظن أنَّك تبقى سرمدًا أبدًا
هيهات أنت غدًا فيمن غدا غادي[١]

يا أيُّها النَّاس:

اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلاة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفةٌ، والنفوس لها عاشقةٌ، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دارٌ كثيرة بوائقها، وذمها خالقها. جديدها يبلى، ومُلكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقلُّ، ودُّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا- رحمكم الله- من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلانٌ عليلٌ أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فَتُدْعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشِّفاء.

---

(١) الزهر الفائح، ص ٥٩.

ثم يقال: فلانٌ أوصى، ولما له أحصى.

ثم يقال: قد ثَقُلَ لسانه، فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه.

وعَرِقَ عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان.

ومُنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عُرِجَ بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسَّلوك وكفَّنوك، فانقطع عوَّادك، واستراح حُسَّادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهَنًا بأعمالك[1].

فالله الله يا أخي...

أُسْدُدْ حيازمك للموت ... فإنَّ الموت آتيك

ولا تجزعن من الموت ... إذا حلَّ بواديك[2]

ولكن ماذا أعددنا لهذا اليوم؟ وكيف استعددنا لهذا الرَّحيل؟ أهو كما ذكر حوشب عند مالك بن دينار عندما قال: «سمعت مناديًا

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٢٥).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٣٧).

ينادي: أيها الناس، الرَّحيلَ الرَّحيل، فما رأيت أحدًا قام غير محمد بن واسع، فبكى مالك حتى سقط أو كاد يسقط؟»(١).

وها نحن يُنادى علينا كلَّ يوم: الرَّحيل الرَّحيل.

فرحم الله من قام وأطاع، واستعد ليوم يُرحل به من هذه البقاع.

أين نحن أخي الحبيب مما قاله سفيان الثوري: «رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا ليَّ على أحد شيء ولا لأحدٍ عندي شيء؟».

ونحن- إلا من رحم ربي- لو أتانا الموت وأمهلنا لاحتجنا إلى سنواتٍ طويلة نرتب أمورنا، ونسدد حقوقنا، ونطيع الله حق طاعته. ولكن رحمة من الله لنا كما قال مطرِّف بن عبد الله: «لو علمت متى أجلي لخشيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة من الموت، ولولا الغفلة ما تهنَّأوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم الأسواق»(٢).

ونحن في دار العمل نتراخى ونتكاسل! فمتى العمل؟ أبعد الموت؟ أعند نزول الموت؟ أفي القبر؟!

نحن في سعة من أمرنا، وفي حال الطَّلب والتَّوبة والاجتهاد في العبادة. وقد علم يزيد الرقاشي ذلك، فكان يخاطب نفسه فيقول:

---

(١) الزهد، ص ٤٥٦، وصفة الصفوة (٣/ ٢٦٧).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٥).

«ابكِ يا زيد على نفسك قبل حين البكاء، يا يزيد، من يصلِّي لك بعدك؟ أو من يصوم؟ يا يزيد، من يضرع لك إلى ربِّك بعدك؟ ومن يدعو؟»[(١)].

ألا كــلّ حــيٍّ هالــكٌ وابــن هالــكٍ

وذو نســـبٍ في الهـــالكين عريـــقِ

فقــل لغريــب الــدَّار إنَّــك راحــلٌ

إلى منــــزلٍ نابي المحـــل ســـحيقِ

ولا تعــدم الــدُنيا الدَّنيَّــة أهلهــا

شـــواظ نارٍ أو دخـــان حريـــقِ

تجــرع فيهــا هالكًــا فقــد هالــكٍ

وتشـــجى فريقًـــا مـــنهم بفريـــقِ

فــلا تحســب الــدنيا إذا مــا ســكنتها

قـــرارًا فمـــا دنيـــاك غـــير طريـــقِ

إذا امــتحن الــدنيا لبيــبٌ تكشَّــفت

لـــه عـــن عـــدو في ثيـــاب صـــديقِ

عليـــك بـــدارٍ لا يـــزول ظلالهـــا

ولا يتـــأذى أهلهـــا بمضـــيقِ

فمـــا يبلـــغ الراضـــي رضـــاه ببلغـــة

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٩٠).

ولا ينفــع الصــادي صــداه بريــقِ[١]

كان مطرف بن عبد الله يقول: «إنَّ هذا الموت قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه»[٢].

وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق عبادته، وصدق العودة إليه- جلَّ وعلَّا-، كما قال العلاء بن زياد- رحمه الله تعالى-: «ليُنزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله»[٣].

فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة، وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيَّرت أعمالنا، وصدقت نياتنا، وعلمنا مدى التقصير الذي نحن فيه، ولجعلنا عملنا في هذه الدنيا عملًا متواصلًا لا فتور فيه ولا ملل؛ حتى نكون مثل ما قال سفيان: «كان يُقال: الموت راحة العابد»[٤].

فانظر في غدك، ودنو أجلك، وقلة عملك، فقد كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنَّى فيها الموت فلا تجده».

---

(١) المدهش، ص ١٩٨.

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٤).

(٣) العاقبة، ص ٩٠.

(٤) شرح الصدور، ص ١٨.

نعم، حتى الموت مع شدَّته وآلامه يُتمنَّى فلا يوجد؛ قال الله- تعالى-: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

خلودٌ في جنة- جعلنا الله من أهلها- أو نارٌ حامية- والعياذ بالله- ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

أما ما أفنيت شبابك وصحتك وعمرك في جمعه من المال فإذا لم تُقدمه أمامك في عمل صالح فإنَّه يكون كما قال يحيى بن معاذ: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كلُّه، ويُسأل عنه كلُّه»(١).

وقد قيل لعبد الله بن عمر: «توفي فلان الأنصاري، قال: رحمه الله، ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه. وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟».

ومن أراد الجنة فلابد له من الموت، رغم آلامه وأهواله وغُصصه وروعاته. قال ابن عبد ربه لمكحول: «أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يُحب الجنة، قال: فأَحْبِبِ الموت؛ فإنَّك لن ترى الجنة حتى تموت»(٢).

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمورٌ بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٤٨).

(٢) شرح الصدور، ص ١٧.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤][١].

أخي المسلم:

ومـــا هـــي إلا ليلـــةٌ ثم يومهـــا
وحـــولٌ إلى حـــولٍ وشـــهرٌ إلى شـــهرِ
مطـــايا يقـــربن الجديـــد مـــن البلـــى
ويـــدنين أشـــلاء الكـــريم إلى القـــبر
ويـــــتركن أزواج الغيـــــور لغـــــيره
ويقسمن ما يحوي الشَّحيح من الوفر[٢]

صعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذات يوم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الموت فقال: «عبادَ الله، الموتُ ليس منه فوت، وإن قمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، فالنجاء النجاء، والوحا الوحا[٣]، إن وراءكم طالبًا حثيثًا، القبر، فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته، ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، إلا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات، فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن ذلك يومًا يشيب فيه الصغير،

---

(١) الفوائد، ص ٧٣.

(٢) شذرات الذهب (١/ ٢٧٦).

(٣) الوحا: الإسراع والعجلة.

ويسكر فيه الكبير ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحُليها ومقامعها من حديد، وماؤها صديد، وخازنها مالك، ليس فيه رحمة. ثم بكى، وبكى المسلمون حوله، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم[١]».

أخي الحبيب:

متى نتوب؟ هل أجبت يومًا على هذا السؤال؟ ولكن لِنَرَ الجواب.

قال بلال بن سعد- رحمه الله-: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله- تعالى- ولا يؤخر عمل الدنيا[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).

(٢) العاقبة، ص ٩١.

وقيل لعتبة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك[١].

مـــالي أرى النـــاس والـــدنيا موليـــة
وكـــل جمـــعٍ عليهـــا ســـوف ينتشـــر
لا يشـــعرون إذا مـــا ديـــنَهم نقصـــوا
يومًـــا وإن نقصـــت دنيـــاهم شـــعروا[٢]

فأكثر همِّ الواحد منَّا نقصُ الدنيا وزينتها!! ونادرًا من نراه يغتم بفوات صلاة جماعة أو طاعة من الطاعات، بل أصبح الهم المشترك لغالب الناس اليوم همُّ الدنيا!!

قال بعضهم: «أيها الناس، إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسفٍ عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب، ويجمع من همِّ اللبيب، ويرسل من عبرات الكئيب، فرحم الله امرًا بكى سواه؛ فعمل، واستقام، وتفكَّر، وأناب».

أين نحن من التفكُّر في أمرنا ومآلنا كما كانوا يتفكرون ولمآلهم يعملون؟ قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان الثوري وقد صلَّينا العشاء الآخرة: ناولني المطهرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره

(١) العاقبة، ص ٤٠.

(٢) إرشاد العباد، ص ٣٦.

على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه، ويساره على خده فقلت: يا أبا عبد الله، هذا الفجر قد طلع، قال: لم أزل منذ ناولتني هذه المطهرة أتفكر في أمر الآخرة حتى الساعة(١)».

وجامع الخير من ذلك كلِّه في قوله- تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

سأل حسان ﷺ أمه يومًا فقال: «يا أماه، أتحبين أن تلقي- الله تعالى-؟ قالت: لا، وقد عصيته».

وكان الربيع بن خثيم يقول: «أكثروا ذكر هذا الذي لم تذوقوا قبله مثله، ولن تذوقوه إلا مرة واحدة»(٢).

وقد حثنا الحسن بقوله: «يا بن آدم، بِعْ عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعًا، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعًا، الثَّواء(٣) هنا قليل، وقد أُسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة، فكأنها والله قد كانت، إنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم»(٤).

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٤٨).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١١٤).
(٣) الثواء: الإقامة والبقاء.
(٤) التبصرة (١/ ٣٦٨).

فتفكَّر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيُّظها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار(١).

مثِّلْ وقوفك يوم العرض عريانًا
مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانَا
النار تلهب من غيظٍ ومن حنقٍ
على العُصاة وربُّ العرش غضبانَا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ
فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
لما قرأْتَ ولم تنكر قراءته
إقرار من عرف الأشياء عرفانَا
نادى الجليل: خذوه يا ملائكتي
وامضُوا بعبدٍ عصى للنار عطشانَا
المشركون غدًا في النار يلتهبوا
والمؤمنون بدار الخلد سُكَّانَا(٢)

---

(١) التذكرة، ص ٣٨٥.

(٢) التذكرة، ص ٢٩٤.

اللهم اجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. اللهم اجعلنا من ورثة جنة النعيم نحن وآباءنا وأمهاتنا وذرياتنا، وحرم وجوهنا على النار.

قال الحسن: «لولا ثلاثة ما طأطأ ابنُ آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر. وإنَّه بعد ذلك لوثَّاب»[١].

وهذا الموت جعله الله نهاية كلّ حيٍّ، وهو آية من آيات الله تدل على قوته وعظمته وجبروته، فالحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرادهم في الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلم اللحود[٢].

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقك. اللهم إنا نعوذ بك أن يتخبطنا الشيطان عند الموت.

* * *

---

(١) الحسن البصري، ص ٤١.

(٢) الإحياء (٤/ ٤٧٥).

هديه ﷺ في الجنائز[١]

كان هديُه ﷺ في الجنائز أكمل الهدى، مخالفًا لهدي سائر الأمم، مشتملًا على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يُعامل به الميت.

وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للربِّ- تبارك وتعالى- على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفًا يحمدون الله، ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهدُه بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهدُ الحي صاحبه في دار الدنيا. فأول ذلك: تعاهدُه في مرضه وتذكيرهُ الآخرة، وأمرهُ بالوصية، والتوبة، وأمرُ من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله، لتكون آخر كلامه، ثم النهيُ عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنُّشور، من لطم الخدود، وشق الثياب، وحلق الرؤوس، ورفع الصوت بالندب، والنياحة وتوابع ذلك.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٩٨) وما بعدها.

وسَنَّ الخضوع للميت ، والبكاء الذي لا صوت معه ، وحزن القلب ، وكان يفعل ذلك ويقول: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب »[١]. وسَنَّ لأمته الحمدَ والاسترجاع، والرضا عن الله، ولم يكن ذلك منفايًا لدمع العين وحُزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق عن الله في قضائه، وأعظمهم له حمدًا.

* * *

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد عن أنس ﷺ.

الوقفة الثانية

الاحتضار

قال- تعالى- في أصدق وصفٍ وأحسن تعبير: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ١٩-٢٠].

وما أدراك- يا أخي- ما هذا المجيء لسكرات الموت، مجيءٌ لا مناص عنه ولا مهرب، لا تجدي معه حيلةٌ، ولا تنفع معه وسيلة، إنه بداية نهايتك من هذه الدنيا والانقطاع عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور والأهل والدور.

إنها- والله- ساعةٌ مهولة- ذات كربٍ شديد، وما بعدها إلا وعدٌ أو وعيد، لو تفكَّرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك، ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينك، ولتبدَّل فرحك حزنًا وسعادتك كدرًا. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب، إلى دار الجزاء الحساب؟ أهوالٌ تهون عندها أهوال، حتى تنتهي إلى أحد الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولشدةِ سكرات الموت التي أصابت خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين، فقد قال ﷺ وهو يُدخِل يديه في ركوة ماء

ويمسح بها وجهه الشريف: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكراتٍ**»(١).

ولما رأت فاطمة - رضي الله عنها - ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشَّاه قالت: واكرب أباه، فقال: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»(٢).

ونحن ندعو بأثره ﷺ، اللهمَّ هوِّن علينا سكرات الموت إذا حلت، وثبتنا إذا وقعت؛ فثقل اللسان، وأُغمضت العينان، ومُدت الأكفان. فاللهم برحمتك إلى الجنان.

قال ﷺ: «**ما من أحدٍ يموت إلا ندم، إن كان مُحسنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئًا ندم أن لا يكون نَزَعَ**»(٣).

فهذه الدنيا مزرعة الآخرة، فإن المحسن يتمنى زيادة الإحسان، رفعة في الدرجات وعلوًا في المقامات، أما المسيء فيندم على تفريطه في التوبة ودخوله على الله- عزَّ وجلَّ- بذنوب وأوزار لم يتب منها، يَأمل في التوبة وربما فاجأه الموت قبل ذلك.

حكمُ المنية في البريَّة جارٍ
ما هذه الدُّنيا بدار قرارِ(٤)

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري عن أنس.

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وفيه ضعف.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٨٢.

ولذلك قال الحسن- رحمه الله تعالى-: «فضح الموت الدنيا؛ لم يترك لذي لُبٍّ فرحًا[١]».

فإنه- والله- ما ترك لهاربٍ سُبُلًا ولا لمحتالٍ حيلًا.

هو الموت فاصنع كلَّ ما أنت صانعُ

وأنت لكأس الموت لابد جارع[٢]

أخي الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديرًا بأن يتنغَّص عليه عيشه، ويتكدَّر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته. وحقيقٌ بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده[٣].

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته، والصراط ودقته، والحساب وشدته؟ أهوالٌ وأهوال، والنهاية جنةٌ أو نار؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦- ٣٠].

(١) الإحياء ٤/ ٤٧٩، والسير ٤/ ٥٨٥.

(٢) موارد الظمآن ٣/ ٦٢٨.

(٣) الإحياء ٤/ ٤٩٠.

إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كلُّ حيٍّ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حيٌّ، الموت الذي يُفَرِّق بين الأحبة، ويمضي في طريقه ولا يتوقف، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف، الموت الذي به يُصرع الجبابرة، ويُقهر به المتسلِّطون كما يقهر به المستضعفون سواء، الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع ذلك لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه، وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر، يتلمَّسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ لعل رقيةً تغيّر وتلوي المكروب من السكرات والنزع ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يسابق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[١].

روي أن ملك الموت دخل على داود- عليه السلام- فقال: «من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تُمنع منه القصور، ولا يقبل الرُشا».

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ١٢.

قال: فإذًا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم أستعدّ بعد. قال: يا داود، أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد؟[(١)]».

ووالله إنَّ في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء، ونرى كيف يوسَّدون الثرى، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولممرٍّ نحن له عابرون، وطريقٍ عليه سائرون.

بكى الحسن البصري عند موته وقال: «نُفيسةٌ ضعيفة، أمر مهولٌ عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون».

ولو تفكرت- يا أخي الحبيب- الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعت وذُهلت، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لابد؟.

يا قابضَ الروحِ من نفس إذا احتضرت

وغافر الذَّنب زحزحني عن النَّارِ[(٢)]

قيل إنَّ أبا وهب- زاهد الأندلس- باع ماعُونَه قبل موته فقيل: ما هذا؟ قال: أريد سفرًا، فمات بعد أيامٍ يسيرة[(٣)].

والإنسان في هذه الدنيا مسافر منذ أن يخطو على هذه الأرض، ولابد له أن يحط عصا الترحال يومًا من الأيام طالت أو قصرت.

---

(١) التذكرة، ص ٤٨.

(٢) شذرات الذهب ١/ ١٢١.

(٣) السير ١٥/ ٥٠٧.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمرُ وهو على حصير قد أثَّر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أَوْثَرَ من هذا؟ فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة من نهار، ثم راح وتركها**»[١].

فأين نحن اليوم وواقعنا من هذا الحديث الشريف؟ قد اتخذنا من مياثر الفرش وفاخر الرياض ما قست القلوب ونُسي الموت والكروب.

قال الحسن: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحًا، لشق عليه أن يأتيه الموت، لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت؟! أَهَلْ لَهُ نعيمٌ دائم أم عذاب مقيم؟!

وكان يقول- رحمه الله-: «من لم يمت فجأة، مرض فجأة، فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم»[٢].

هو الموت لا منجا من الموت والذي
أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع[٣]

أخي الحبيب:

(١) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس.

(٢) الحسن البصري، ص ١٠٥.

(٣) تسلية أهل المصائب، ص ٨٧.

أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله، لقد فنوا وهلكوا. اجتمع الأضداد في الألحاد واشتركوا، وخانهم حبل الأمل بعد ما أمسكوا، ونوقشوا على ما خلفوا وتركوا، وصار غاية الأماني لو تركوا(١).

لما احتضر أبو بكر ﷺ، تمثَّلت عائشة – رضي الله عنها– بهذا البيت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر ﷺ: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: انظروا ثوبَيَّ هذين فاغسلوهما، ثم كفِّنوني فيهما؛ فإنَّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت(٢).

ولمعرفة صفة هذا الموت الذي لا يحسُّ ألمه إلا من يعانيه فقد قال عمر لكعب أخبرني عن الموت. قال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرةٍ كثيرةِ الشَّوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذِّراعين فهو يعالجها ينتزعها، فبكى عمر.

للموتِ فاعمل بجدٍ أيُّها الرَّجلُ

واعلم بأنَّك من دنياك مرتحل

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٨٩.

(٢) الزهد، ص ١٦٣.

إلى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ
تمسي وتُصبح في اللذات مشتغل
كأني بك ياذا الشَّيب في كُربٍ
بين الأحبَّة قد أودى بك الأجل
لمَّا رأوك صريعًا بينهم جزعوا
وودَّعوك وقالوا قد مضى الرجل
فاعمل لنفسك يا مسكين في مهلٍ
ما دام ينفعك التذكار والعمل
إن التَّقيَّ جنان الخُلدِ مسكَنُه
ينال حورًا عليها التَّاج والحلل
والمجرمين بنارٍ لا خمود لها
في كلِّ وقتٍ من الأوقات تشتعل(١)

قال وهب بن منبه: «كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها، فلم تعجبه، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات، وكذلك طلب دابة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أُتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخةً، فجلاه كبرًا، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا، فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ لجام دابته، فقال:

---

(١) بستان الواعظين، ص ٢١٧.

أرسِل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فتغير لون الملك، واضطرب لسانه، ثمَّ قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله، لا ترى أهلك وثقلك أبدًا، فقبض روحه، فَخَرَّ كأنه خشبة.

ثمَّ مضى فلقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أُذنك، فقال: هات، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فقال: أهلًا وسهلًا بمن طالت غيبته عليَّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقضِ حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله- تعالى-، قال: فاختر على أيِّ حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم، إنِّي أُمِرْتُ بذلك، قال: فدعني أتوضَّأ وأصلِّي ثمَّ أقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه، وهو ساجد»[1].

ولنَرَ ثمن الزمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك؛ فإنه لما احتضر عامر بن عبد الله بكى، وقال: «لمثل هذا المصرع فليعمل

(١) الإحياء ٤/ ٤٩٦.

العاملون، اللَّهم إِنِّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله» ثمَّ لم يزل يرددها حتى مات- رحمه الله-.

والله، إنَّ الموت كما قال مطرف بن عبد الله: «قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه»(١).

قال صفوان بن سليم: «في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكُرَب»، ثم ذرفت عيناه(٢).

وما من يخاف الموت والنار آمنٌ
ولكن حزين موجع القلب خائف
إذا تمَّ ذكر الموت أوجع قلبه
وهيج أحزانًا ذنوبٌ سوالفُ

وانظر إلى تأسُّفهم على الدنيا وما فيها لمعرفتهم أنَّها دار عمل؛ فقد بكى أحد العبَّاد عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولستُ فيهم، ويذكر الذَّاكرون ولستُ فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم.

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، لحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو أردت زيادة في عمرك ولو للحظات- مقابل أموال الدنيا أجمع- لما

---

(١) السير ٤/ ١٩.

(٢) السير ٥/ ٣٦٦.

استطعت إلى ذلك سبيلًا، فكيف بك الآن تضيِّعها في غير طاعة الله؟

وقد ذكر ذلك أبو حازم فقال: «إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشكك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية»(١).

ونحن نضيع أعمارنا، وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من ورائه، بل إننا فرحون مستبشرون بذلك!

وقد مر الحسن برجلٍ يضحك، فقال: يا ابن أخي، هل جُزتَ الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، قال: فَفِيمَ الضَّحك؟! عافاك الله والأمر هول»، فما رئي الرجل ضاحكًا حتى مات(٢).

ولغلبة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة، ومن باب الموعظة والتذكير:

كان عمر بن الخطاب ﵁ يقول: أكثروا من ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٨.

(٢) الحسن البصري، ص ٨٩.

(٣) الحسن البصري، ص ١٠٨.

ولما حضرت الوفاة فضيل بن عياض- رحمه الله- غشي عليه، ثم أفاق وقال: «يا بعد سفري وقلّة زادي»[١].

أخي الحبيب:

أيُّ سفر أطول من هذا السفر، وأي زاد تحتاج: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الموت الذي لم تذقه بعد فلا نَعرفُ ألمه وشدته إلا حين يقع وكل منا سيمر بتلك اللحظات العصيبة والدقائق الرهيبة؛ الأنفاس مشدودة، والعين حائرة كسيرة. إنها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك، تُفكر في ماذا تلك اللحظات. أما ونحن لم نذق الموت بَعَدُ؛ ألمه وغُصَصه وكُربه.

ما هي؟ لنسير لحظات في زمن مضى لنر تلك اللحظات العصيبة والدقائق الحرجة وكيف مرت على أناس قبلنا فذاقوا طعمها وعرفوا شدتها.

لما احتضر عمرو بن العاص سأله ابنه عن صفة الموت فقال: «والله لكأن جنبي في تختٍ[٢] ولكأنِّي أتنفَّس من سَمِّ إبرةٍ، وكأنَّ غصن شوك يُجرّ به قدمي إلى هامتي»[٣].

---

(١) العاقبة، ص ١٣٣.

(٢) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٤٤٩.

هذا هو الموت وهذه شدَّته. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصرًا في أيِّ الأبواب ستُدخَل؟ وفي أيِّ الدارين تُسكَن؟ وأيِّ المساكن تنزل؟

قال محمد بن واسع، وهو في الموت: «يا إخوتاه، تدرون أين يُذهب بي؟ يُذهب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عنِّي[1]».

وقد قيل لجابر بن زيد عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا إخوتاه، الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

مـــا هـــي إلا جنَّـــةٌ ونارٌ

أفلـــح مـــن كـــان لـــه اعتبـــارُ

قال عبد الله بن عبد العزيز العمري عند موته: «بنعمة ربِّي أُحدِّث. إنِّي لم أُصبح أملك إلا سبعة دراهم من لماء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربِّي أُحدِّث. لو أنَّ الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ما أزلتها»[2].

أرأيت كيف الدنيا التي نحن نتهافت عليها كيف تكون عند الموت؟

---

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٢٧١.

(٢) الثبات عند الممات، ص ١٥٣.

ولمعرفتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق كان ابن سيرين إذا ذكر الموت، مات كل عضو منه على حدَّته[1].

وعند ذكر ما بعد الموت يهول الموت وشدته وألمه، خاصة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال سفيان الثوري: ما من موطن من المواطن أشد عليّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد علي، فاسأل التخفيف فلا أجاب فأُفتن»[2].

ولنتأمل في نصيحة محمد بن واسع، وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق، قال محمد بن عبد الله مولى الثقفيني: «دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخوتي، يا إخوتاه، هبوني وإياكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومَنَعنِيها، فلا تخسروا أنفسكم»[3].

فيا أخي:

لِنتمثَّل قوله، وأن الله أقالنا، فكم منا من شخص نجا من حادث، وآخر عوفي من مرض، وثالث صحيح معافى تخطاه الموت إلى غيره، فلنعد إلى الله قبل أن نرى الموت عيانًا، ولاتَ حين مناص ولا مهرب.

قل للطبيب تخطَّفته يد الرَّدى

من يا طبيب بطبِّه أرداكا

---

(١) العاقبة، ص ٣٩.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨.

(٣) صفوة الصفوة ٣/ ٢٧١، والثبات عند الممات، ص ١٤٦.

قــل للمــريض نجــا وعــوفي بعــدما
عجــزت فنــون الطــبِّ مــن عافاكــا
واسـأل بطـون النَّحـل كيـف تقـاطرت
شــهدًا وقــل للشَّــهد مــن حلّاكــا
وإذا تـــرى الثُّعبـــان ينفـــث سُمَّـــه
فاســألهه مــن ذا بالســموم حشــاكا
واســـأله كيـــف تعـــيش يا ثعبـــان
أو تحيــا وهـــذا الســم يمــلأ فاكــا
فالحمـــــد لله العظـــــيم لذاتــــه
حمـــدًا ولـــيس لواحـــدٍ إلَّاكـــا

قال عبد الملك بن مروان في مرض موته: «ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: يا دنيا، ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور[1]».

إخواني:

جدُّوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عُلقتم، ولا تغفلوا عمَّا له خُلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت الآثام وما أصغيتم، وكأنَّكم بالصَّادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٥.

كم سكن مثلك في هذه الدَّار، فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، يا هذا، العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الآوان أن يرحل النزيل(١).

لقد خوَّفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أَمِنَّا!!

قال لقمان لابنه: «يا بني، أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك»(٢).

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فياللموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفي بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرِّقًا للجماعات، وهادمًا للّذات، وقاطعًا للأمنيات.

فهل تفكَّرت يا بن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟

وإذا نُقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب الرفيق، وهجرك الأخ والصديق، أُخذتَ من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك بعد لين لحافك بتراب وقذر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالٍ إلا الأكفان. بل هي- والله- للخراب والذِّهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ هل أنقذك من

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٩١.

(٢) العاقبة، ص ٩٢.

الأهوال؟ كلا، بل تركته إلى مَنْ لا يحمدك، وقدِمتَ بأوزارك على من لا يعذرك[١].

هــو المــوت مــا منــه مــلاذٌ ومهــربُ
مــتى حــطَّ ذا عــن نعشــه ذاك يركــبُ
نشـــاهد ذا عـــين اليقـــين حقيقـــة
عليــه مضــى طفــل وكهــل وأشــيبُ[٢]

قيل إنَّ يعقوبَ- عليه السلام- قال لملك الموت: إِنّي أسألك حاجة قال: وما هي؟ قال: أن تُعْلِمني إذا دنا أجلي، وأردت أن تقبض روحي؟ فقال: نعم، أُرسِل إليك رسولين أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائرٌ جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض روحك، فقال: أوَلست كنت أخبرتني أنك ترسل إليّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت[٣].

وليس هذا هو السائد؛ فكم أخذ الموت من طفل رضيع، وكم أخذ مَن قد استقام عوده وشبّ؛ بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.

---

(١) التذكرة، ص ١٠.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٥٩٦.
(٣) إرشاد العباد، ص ٧.

ولكن هاك نصيحة موثقة تصلح لجميع الأعمار، وتُبنى بها الدِّيار في جنات الخلد؛ قال أبو حازم سلمة بن دينار: «كلُّ عملٍ تكره الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى متّ»(١).

أرأيت- أخي الكريم- كيف القياس؟

هاك الأخرى:

قال ميمون بن مهران: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله- عزَّ وجلَّ- فلينظر في عمله، فإنه قادم على عمله كائنًا من كان»(٢).

وجماع ذلك قول الله- تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

وهذه نداءات قلبية صادقة من أبي الدرداء ﷺ، وهو يحتضر، فقد جعل يقول: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟» وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: «مالي لا أبكي ولا أدري عَلامَ أُهجم من ذنوبي».

ولكن أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟.

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٣.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٨٤.

تفـــــتُّ فـــــؤادك الأيام فتًّـــــا

وتنحـــت جســـمك السَّـــاعات نحتًـــا

وتــــدعوك المنـــون دعـــاء صـــدقٍ

ألا يا صـــاحِ أنـــت أُريـــد أنتـــا[1]

قال بعضهم: «دخلنا على عطاء السلمي نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يدي، والقيامة موقفي، وجسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يفعل بي. ثم بكى بكاءً شديدًا حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: اللهم ارحمني، وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحيمن».

وصحب رجلٌ عمر بن الخطاب إلى مكة، فمات في الطريق، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه، فقلَّ يومٌ إلا كان عمر يتمثَّل:

وبالِـــغُ أمـــرٍ كـــان يأمـــل دونـــه

ومخـتلَج مـن دون مـا كـان يأمـلُ[2]

---

(١) موارد الظمآن ١/ ٥٣.

(٢) تاريخ عمر، ص ٢٠٨.

ويحكِ يا نفس، أما تخافين إذا بلغت النفس التراقي أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسوء الألوان وقلح الوجوه وبشرى العذاب؟ فهل ينفعك حينئذٍ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟.

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين لنقصان عمرك، وما نَفْعُ مالٍ يزيد وعمر ينقص[١].

وها هو أمير المؤمنين المأمون لما حضرته الوفاة أمر بحلِّ دابته ففرش له، فاضطجع عليه، ووضع الرَّماد على رأسه، وجعل يقول: «يا من لا يزول ملكه، ارحم اليوم من قد زال ملكه»[٢].

ولما حضرت الوفاة أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين، قال للربيع: «يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت»[٣].

إنه الموت نهاية كلِّ حيٍّ، لا يفلت منه أحد، ولا يُسبَق فيفوته أحد[٤].

هذا عبد الملك بن مروان عندما أيقن بالموت، قال: «والله لوددت أنِّي كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالًا»[٥].

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٤٦.

(٢) العاقبة ص ١٣٠.

(٣) العاقبة، ص ١٢٨.

(٤) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٧.

(٥) تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥.

وقال أبو الدرداء ﷺ: «إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم[(١)]».

فالموت قد عدل، ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة، ولا يرده حاجب القصور الكبيرة، أفنى من ملكوا الدنيا، وقضى على من لا يملكون شيئًا من الدنيا، ولكن..

النَّـــاس في غفلاتهـــم

ورحـــى المنيَّـــة تطحـــنُ[(٢)]

قيل لسعيد بن السائب: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت أنتظر الموت على غير عدَّة»[(٣)].

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا، ولا يغتر بالشباب والصحة؛ فإن أقل من يموت الأشياخ وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر.

يعمّـــر واحـــد فيُغَـــر قـــومٌ

ويُنسـى مـن يمـوت مـن الشـباب[(٤)]

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٢.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٣.

(٤) صيد الخاطر، ص ٢٦٢.

قال أبو سليمان الداراني: «قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقًا لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جلَّ جلاله»[(١)].

وعندما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة، قال: أقعدوني. فأُقعد، فجعل يسبّح الله- تعالى- ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكُر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغَضُّ الشباب نضرٌ ريان؟ وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يارب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقلَّ العثرة، واغفر الزلة، وجُد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق بأحدٍ سواك[(٢)].

ولما كان عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله. ثم رفع رأسه وأحدَّ النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظرًا شديدًا، قال: إني لأرى حضرة ما هم بإنسٍ ولا جن، ثم قبض[(٣)].

وقد قيل لعبد الله بن مروان في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله- تعالى-: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا

---

(١) العاقبة، ص ٣٠.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٨٩.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٥.

خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤][1].

والموت- أخي الحبيب- لم يَغِبْ عنا لنحتاج من يذكرنا به، فهو في كل يوم يحل بوادينا وللآخرة يدنينا، ولكننا غفلنا عنه، وتناسينا قربه وحلوله.

ولعلنا نكون كما قال ابن السمَّاك: «إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت، وعاش ما بعده فسأل الرجعة، فأُسعِفَ بطلبه، وأُعطي حاجته، فهو متأهب مبادر، فافعل؛ فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئًا ومن نفسه لنفسه»[2].

النـــاس في غفلـــة والمـــوت يـــوقظهم
ومـــا يفيقـــون حـــتى ينفـــد العمـــر
ويُشَـــــيِّعون أهـــــاليهم بجمعهـــــم
وينظـــرون إلى مـــا فيـــه قـــد قُـــبروا
ويرجعـــــون إلى أحـــــلام غفلـــــتهم
كـــأنهم مـــا رأوا شـــيئًا ولا نظـــروا[3]

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٤.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.
(٣) صيد الخاطر، ص ١٤٩.

والعمر زمنٌ يمر سريعًا كأضغاث أحلام؛ يراه الإنسان لا نهاية له، ويُلهِهِ الأمل عن الآخرة. ولذلك كان المعتصم يقول عند موته: «لو علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت»(١).

كلنا أعمارنا قصيرة، وآجالنا مكتوبة، وأنفاسنا معدودة، ولكن الخوف من نار تلظّى. كما قال مهدي بن ميمون: «رأيت حسان بن أبي سفيان في مرضه، فقيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة الطرفين، أُحيي ما بين طرفيها»(٢).

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ثم قال: مرحبًا بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافُك... وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حَلَق الذكر»(٣).

---

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٢.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ١١٧.

(٣) منهاج القاصدين، ص ٤٣١.

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟

كان حبيب العجمي عند موته يبكي ويقول: «أريد أن أسافر سفرًا ما سافرته قط، وأسلك طريقًا ما سلكته قط، وأزور سيدي ومولاي وما رأيته قط، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط».

فهنّ المنايا أي وادٍ سلكته
عليها طريقي، أو عليَّ طريقها[(١)]

وكان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل، ولا متى ينتقل، فلا يُلهِيه الأمل، ولا يثنيه بُعد الأجل. كانت معاذة العدوية إذا جاء النهار قالت: «هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُصبح»[(٢)].

وبكى أبو هريرة في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي بُعد سفري وقلة زادي، وأني أصبحت في صعود مُهبطًا على جنة ونار، ولا أدري أيهما يؤخذ بي[(٣)].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٢.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٨٣.

فكم من صحيح بات للموت آمنًا
أتته المنايا بغتة بعدما هجعَ
فلم يستطع إذ جاءه الموت فجأة
فرارًا ولا منه بقوته امتنعَ
فأصبح تبكيه النساء مقنعًا
ولا يسمع الداعي وإن صوته ارتفعَ
وقُرِّب من لحد مضار مقيله
وفارق ما قد كان بالأمس قد جمعَ(١)

أما أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغبطهم الكثير من أهل الدنيا على هذه النعمة لِنَرَ حالهم عند الموت. إنها لحظات عصيبة؛ العيون شاخصة، والأنفاس متتابعة.

فقد قال محمد بن منصور البغدادي: دخلت على عبد الله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: «لا تسمِّني أميرًا وسمني أسيرًا».

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جعل يقول: «والله لوددت أنِّي عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألي»(٢).

(١) التبصرة ١/ ٣٢٨.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص ٨٨.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: «لا بأس عليك يا أمير المؤمنين. فقال: «ليس إلا هذا، لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة»(١).

وذُكر أن الواثق لما احتضر جعل يردد:

الموت فيه جميع الخلق مشترك
لا سوقه منهم يبقى ولا ملكُ
ما ضر أهل قليل في تفارقهم
وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا(٢)

وهذا التفاوت في معايش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع؛ فهو بأمر الله مهلك القوي ومفني الدول، ولكن البدار البدار، التوبة قبل الموت. قال شفيق بن إبراهيم: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة(٣).

والرجعة- أخي الحبيب- لن تعطى إياها، فلكل أجل كتاب، ولكن استعد للموت بالعمل الصالح وبالتوبة النصوح.

إن الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا
أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حَبَسوا

---

(١) الثبات عند المممات، ص ٩٢.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ٣١٨.

(٣) الزهد للبيهقي، ص ٢٣٩.

إن المنيـــة حـــوض أنـــت تكرهـــه

وأنــت عمــا قليــل ســوف تــنغمس[١]

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر: «دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب، وهو يموت، فجعل يكبر ويهلل ويَذكُر الله، فلما كَثُر الناس قال لابنه: اكفني رد السلام، لا يشغلوني عن ربي»[٢].

إنَّ الطَّبيـــــب بطبِّـــــه ودوائـــــه

لا يســـتطيع دفــاع مكـــروهٍ أتـــى

مــا للطَّبيــب يمــوت بالــدَّاء الــذي

قــد كــان يُــبري منــه فيمــا قــد مضــى

ذهــب المُــدَاوَي والمُــدَاوَى والــذي

جلــب الــدَّواء وباعــه ومــن اشــترى[٣]

لما نزل الموت بحذيفة بن اليمان قال: «حبيبٌ جاء على فاقةٍ، قد كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك[٤].

وبكـى الحسـن رضي الله عنه بكـاءً شـديدًا، فقيـل لـه: يا أبا سـعيد مـا يبكيك؟ فقال: خوفًا من أن يطرحني في النار ولا يُبَالِي[٥].

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٧٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣٠.

(٣) ديوان أبو العتاهية، ص ٢٩.

(٤) العاقبة، ص ١٤٦.

(٥) الزهر الفائح، ص ٩١.

ونحن نرى قصص السَّلف تترى، ومواقفهم تتابع، أحاط بنا الموت من كلِّ جانبٍ، ورقت قلوبنا؛ لما نسمع من حالهم، وهم من هم في الصَّلاح والعبادة؛ حريٌ بنا أن نعي قول العلاء بن زياد الغدوي: «ليُنزِلَ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه- تعالى- نفسه فأقاله، فليقل بطاعة الله»(١).

فأقلْ- أخي الحبيب- نفسك من اليوم، وكن من بقية القوم الذين للموت استعدُّوا وللآخرة جدوا.

وحالنا قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال وما حال من يريد سفرًا بعيدًا بلا زاد، ويدخل قبرًا موحشًا بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجة(٢).

أخي:

كأن أهلك قد دعوك فلم
تسمع وأنت مُحشرجُ الصَّدر
وكأنهم قد قلَّبوك على
ظهر السَّرير وأنت لا تدري
وكأنَّهم قد زودوك بما
يتزود الهلكى من العِطر

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٤.
(٢) الأحياء ٢/ ٢٥١.

أخي الحبيب:

يا ليـــت شـــعري كيـــف أنـــت إذا
غُسِّـــــلت بالكـــــافور والســـــدر
أو ليــت شــعري كيــف أنــت علــى
نـــبش الضـــريح وظُلمـــة القـــبر
يا ليـــت شـــعري مـــا أقـــول إذا
وضـــع الكتـــابُ صـــبيحة الحشـــر
يا ســـــوأتا ممـــــا اكتســـــبتُ ويا
أسـفي علـى مـا فـات مـن عمـري
ألا أكـــون عقلـــت شـــأني فاســـ
ـتقبلت مـا اسـتدبرت مـن أمـري[1]

لما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «والله ما أبكي لذنب أعلم أنِّي أتيته، ولكن أخاف أنِّي أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم»[2].

وكان بعض الصالحين ينادي بليلٍ على سور المدينة: الرحيلُ الرحيلُ، فلما توفي فَقَد صوته أميرُ المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات، فقال:

---

(١) التبصرة ١/ ٢٩.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٩٤.

مـــا زال يلهـــج بالرَّحيـــل وذِكـــره
حـــــتى أناخ ببابــــــه الجمَّـــــالُ
فأصــــــابه متيقِّظًـــــا مُتشـــــمِّرًا
ذا أُهبـــــةٍ لم تُلهـــــه الآمـــــالُ[1]

ودخل ابن عباس على عمر بن الخطاب حين طُعن، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت مع رسول الله حين كفَر الناس، وقاتَلتَ مع رسول الله حين خذله الناس، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، ولم يختلف في خلافتك رجلان، فقال عمر: أعد، فأعاد، فقال عمر: «المغرور من غررتموه، لو أنَّ لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع»[2].

فلـو كـان هـولُ المـوت لا شـيء بعـده
لهـان علينـا الأمـر واحتُقِـر الأمـرُ
ولكنــه حشــرٌ، ونشــرٌ، وجنَّــةٌ
ونارٌ ومـا قـد يسـتطيل بـه الخـبرُ[3]

---

(١) التذكرة، ص ١٠.
(٢) تاريخ عمر، ص ٤٣، التذكرة، ص ٩٧.
(٣) أبو العتاهية، ص ١٨٩.

وعن عمران الخياط قال: «دخلنا على إبراهيم النَّخعي نعوده، وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك أبا عمران؟ قال: انتظر ملك الموت، لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار»(١).

وصدق؛ فما بعد هذه الدنيا إلا جنةٌ ونار. هل نظرنا أين نحن ذاهبون؟

ولأي طريق نحن سالكون؟ اجتمع علينا طول أملٍ وغفلة. فاللهم أيقظ قلوبنا من سباتها، وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

قال المغيرة بن حبيب: «دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لفرج ولا لبطن»(٢).

رحم الله الجميع. بيننا وبينهم البون الشاسع؛ فحبُّ الدنيا عندهم رغبة في العبادة والطاعة، أما الحال اليوم فلماذا حُب البقاء!!

قال سليمان التيمي: «دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذه الجَزعُ كُله لماذا، وقد كُنتَ- بحمد الله- على حالة صالحة؟ فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحقُّ مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله- عزَّ وجلَّ- لأهمَّني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه»(٣).

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٨٩.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.

(٣) تسلية أهل المصائب، ص ٨٨.

أخي الحبيب.. تأهَّب..

إن للمـــوت ســـكرة فارتقبهـــا

لا يـــداويك إذا أتتـــك طبيـــبُ

أعاننا الله على لقائه، وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه، وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: ومن أحق مني بذلك، وها هو ذا تطوى صحيفة عملي؟ ثم كَبَّر، ومات[١].

وحين حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي؛ لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية».

والموت يمر عبر السطور، وتقشعر له النفوس، نتمنى أن ينتهي الحديث عن الموت، لكن لِنَرَ عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- وهو يقول: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد»[٢].

الموت لا يفارق ذهنة ساعة، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن الموت ولو ساعة، بل ربما يقوم بعضهم من المكان الذي فيه ذكرٌ

(١) العاقبة، ص ١٣٣.

(٢) العاقبة، ص ٣٩.

للموت وحديث عن الاحتضار، وما ذاك إلا من الغفلة، ورغبة في الدنيا ونعيمها الزائل. هذا وهو حدث في مكانٍ منعم بالنعم.

لنتأمل فعل أمير المؤمنين هارون الرشيد وهو ينتقي أكفانه بيده، وينظر إليها، ويقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨- ٢٩][١].

لطول الغفلة وكثرة التعلق بالدنيا.. ربَّما لو وجد البعض ثوبًا يشبه الكفن في بيته لأخرجه، فلا داعي له، وهل الموت قريب ليستعد له؟!

تنـــام ولم تـــنم عنـــك المنـــايا

تنبَّــــه للمنيـــــة يا نـــــؤومُ

لما حضرت سليمان الفارسي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «ما أبكي جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا[٢].

أخي الحبيب:

أنظر حولك.. أين نحن من هؤلاء؟!

مـــا النَّـــاسُ إلا واردٌ وصـــادرٌ

الطمـــعُ للغالـــب فقـــرٌ حاضـــر

---

(١) العاقبة، ص ١٢٨.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٩٣.

ذكَّرنَا عمر بن عبد العزيز بمآلنا وانقطاعنا عن الدنيا فقال: «ألا ترون أنكم تجهِّزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله- عزَّ وجلَّ- وتضعونه في صدع من الأرض، قد توسَّد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب»[1]؟

سفري بعيد وزادي لم يبلغني
وقسوتي لم تزل والموت يطلبني
ولي بقايا ذنوبٍ لست أعلمها
الله يعلمها في السرِّ والعلن

لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب. فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هنا تموت فقيرًا غريبًا، فقال: اسكت؛ فإنِّي سألت الله أن يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثم قال: لقِّني الشهادة ولا تُعد علي إلا أن أتكلم بكلامٍ ثان[2].

إخواني:

كيف الأمن؟ وهذا الفاروق يقول: «لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهبًا وفضة لافتديت بها، كيف الأمن من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر».

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

(٢) العاقبة، ص ١٤٥.

ولما طُعن عمر قال لابنه: «ضع خدي على التراب، فوضعه، فبكى حتى لصق الطين بعينيه وجعل يقول: ويلي، وويل أمي إن لم يرحمني ربي»(١).

وقالت أم الدَّرداء: «كان أبو الدرداء إذا مات الرجل على الحال الصالحة قال: هنيئًا لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالت أم الدرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أن الرجل يصبح مؤمنًا ويمسي منافقًا، يُسلَبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام»(٢).

قيل للكناني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: «لو لم يَقرُب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه»(٣).

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا لنرى ولو ساعة من نهار؟

مضى الدَّهر والأيام والذَّنب حاصلٌ

وجاء رسول الموت والقلب غافل

نعيمك في الدنيا غرورٌ وحسرةٌ

وعيشك في الدنيا محالٌ وباطل

---

(١) المدهش، ص ١٩١.

(٢) شرح الصدور، ص ١١.

(٣) الإحياء ٤/ ٥١٣.

لما حضرت بلالًا الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: «بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمدًا وحزبه»[١].

ومــا المــوت إلا رحلــةٌ، غــير أنَّهــا
مـن المنـزل الفـاني إلى المنـزل البـاقي[٢]

وهذا فاروق الأمة، لِنَرَ خوفه من الله- عزَّ وجلَّ- فقد قال عبد الله بن الزبير: «ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزنٍ أصابنا على عمر بن الخطاب ليلة طعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أسر الناس وأحسنهم حالًا. فلما كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا تكبيره، فإذ هو عبد الرحمن بن عوف، فلما انصرفنا قيل: طُعن أمير المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين، الصلاة، الصلاة، قال: ها الله ذا لا حظَّ لامريءٍ في الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم، فانبعث جرحه دمًا، قال: يا أيها الناس، أكان هذا على ملأ منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب: لا والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا تفدي دمك، فالتفت إلى عبد الله بن عباس فقال: اخرج، فسل الناس ما بالهم واصدقني الحديث.

---

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٣.

(٢) أبو العتاهية، ص ٢٨٩.

فخرج، ثم جاء، فقال: يا أمير المؤمنين، أبشر بالجنة، لا والله ما رأيت عينًا تطرف من خلق من ذكر أو أنثى إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبد المغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلًا فهم في دمائهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاض، تَهْنَك يا أمير المؤمنين الجنة. قال: غُرَّ بهذا غيري يا ابن عباس. وَلِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزًا، وإن كان هجرتك لفتحًا، وإن كانت ولايتك لعدلًا، ولقد قُتِلْتَ مظلومًا، ثم التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عند الله يوم القيامة؟ فكأنَّه تلكَّأ. قال: فقال علي بن أبي طالب وكان بجانبه: نعم، يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثم التفت إلى ابنه عبد الله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها، وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثم قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا ما به من الغلبة، قال: فوضعت خده إلى الأرض حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من بين أضغاث التراب، قال: وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينيه، قال: واصغيت بأذنين

لأسمع ما يقول: قال: فسمعته وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه»[١].

كتب الموت على الخلق فكم
فلَّ من جيش وأفنى من دول

قال عبد العزيز بن أبي رواد: «دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه فقلت: أوصني. فقال: اعمل لهذا المضجع»[٢].

ونحن- يا أخي- ماذا عملنا لهذا المضجع وماذا قدمنا ليوم الفزع؟ قيل لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثلاثًا. ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُتركا عليّ إلا قليلًا حتى أُبَدِّل بهما خيرًا منهما أُسلَبهما سلبًا قبيحًا[٣].

خرجْتُ من الدُّنيا وقامت قيامتي
غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجَّل أهلي حفر قبري وصيَّروا
خروجي وتعجيلي أجلَّ كرامتي
كأنَّهموا لم يعرفوا قط صورتي

(١) تأريخ عمر، ص ٢٤٥.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٩٤.
(٣) السير ٢/ ٣٦٨.

غـــداة أتـــى يـــومي علـــيَّ وســـاعتي

وخُلُق المسلم عبدة يتقرب بها إلى الله؛ فهذا سعيد بن العاص لما حضرته الوفاة لم ينس إخوانه وأصحابه، فقد جمع بنيه، وقال لهم «لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصِلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ماكنت أُجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطَّلب؛ فإنَّ الرَّجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه، مخافة أن يُردَّ»(١).

رحمك الله ورحم أيادٍ أعطت وخيرًا أنفقت. فكم من فقير أطعمت وملهوف أنجدت.

قال عمر بن عبد العزيز: «لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدنيا بشيٍ أبدًا، حتى أعلم مما في وجوه رسل ربِّي إليَّ عند الموت، وما أحبُّ أن يهون عليَّ الموت؛ لأنَّه آخر ما يؤجرُ عليه المؤمن»(٢).

وعن المزني قال: دخلت على الشافعي في علَّته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدُّنيا راحلًا، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله- تعالى- واردًا، فلا أدري روحي تصير إلى الجنَّة فأهنِّيها أو إلى النَّار فأعزِّيها، ثم بكى، فأنشد يقول:

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٤.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٦.

ولمَّـا قسـا قلـبي وضـاقت مـذاهبي
جعلـت الرَّجـا مـنِّي لعفـوك سُـلَّمَا
تعـاظمني ذنـبي فلمَّـا قرنتـه
بعفـوك ربِّي كـان عفـوك أعظمـا
ومازلـتَ ذا عفـو عـن الـذَّنب لم تـزل
تجـود وتعفـو منَّـة وتكرُّمـا[(١)]

ولما احتضر سعيد بن المسيب ترك دنانير، فقال: «اللهمَّ إنك تعلم أنِّي لم أتركها لأصون بها حَسَبي وديني»[(٢)].

والكثير الآن من الأموال جُمعت من حرام، وأُودعت في حرام، وأُنفقت في حرام، وهو- رحمه الله- ترك دنانير؛ ليصون بها حسبه ودينه.

أرأيت- أخي- كيف تبدلت الأمور، وتغيَّرت المفاهيم؟ طالت الغفلة حتى نسي المسلم لماذا خُلق، والله- جلَّ وعلا- حدَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لما احتضر عبد الرحمن بن الأسود بكى، فقيل له. فقال: أسفًا على الصلاة والصوم. ولم يزل يتلو حتى مات[(١)].

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥، والسير ١٠/ ٧٦.
(٢) السير ٤/ ٢٤٥.

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن، وعمل صالح، تُحمل ملفوفًا بكفن تاركًا وراءك قصورًا شيدتها ودورًا بنيتها، فيها أحباب وأصحاب، وزوجات وأبناء.

وكل هذا لديك ولكنك ترحل بكفن. أرأيت كيف؟ قال عمر بن الخطاب لابنه: اقتصدوا في كفني؛ فإن كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي. واقتصدوا في حفرتي؛ فإنه إن كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مد بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي[٢].

قالت زينب بنت جحش حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني، فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا أدليتموني أن تصدقوا بحقوقي فافعلوا.

يا ربِّ أنـت رجـائي
وفيـك حَسَّـنتَ ظـني
يا رب فـاغفر ذنـوبي
وعـافني واعـف عـني
العفـو منـك إلهـي
والـذنب قـد جـاء مـني

---

(١) السير ٥/ ١١٢.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

لما نزل الموت ببعض الصالحين، وكان على عليائه من العبادة والزهد، شق عليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا قوم، القدوم على الله شديد.

ولما حضرت الحسن بن هانيء الوفاة أنشد:

دبَّ فيَّ السقام سفلًا وعلوًا

وأراني أموت عضوًا فعضوًا

ليس من ساعة مضت بي إلا

نقصتني بمرِّهَا بيَّ جزوًا

لهف نفسي على ليالٍ وأيا

م قضيتُهن لعبًا ولهوًا

قد أسأتُ كل الإساءة فا

للَّهم صفحًا وغفرانًا وعفوًا(١)

ودخل الحسن البصري على مريضٍ يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام- يرحمك الله-، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه(٢).

---

(١) العاقبة، ص ١٣٧.

(٢) التذكرة، ص ١٤.

مشـــيناها خُطـــىً كُتِبَـــت علينـــا
ومــن كُتِبَــتْ عليــه خُطــىً مشــاها
وأرزاقٌ لنـــــــــا متفرقـــــــــاتٌ
فمـــــن لم تأتـــه منـــا أتاهـــا
ومـــــن كُتِبَـــــت منيتـــــةُ بأرضٍ
فلـــيس يمـــوتُ في أرضٍ ســـواها(١)

وقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: أُكلّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنةً من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفًا من سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يُغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. فمن هذا خاف السَّلف، من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى. قال: واعلم أن سوء الخاتمة – أعاذنا الله تعالى منها – لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا، ولا عُلم به، ولله الحمد،

---

(١) التذكرة، ص ٩٤.

إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرارٌ على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطويّة، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة- والعياذ بالله-(١).

قـــرُب الرَّحيـــل إلى ديار الآخـــرة

فاجعـل إلهــي خــير عمــري آخــره

وأرحــم مبيــتي في القبــور ووحــدتي

وارحــم عظـامي حـين تبقـى ناخـرة(٢)

يروى عن عبد الله بن شرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوده، فوجدنا لما به، ورجلٌ يلقِّنه الشَّهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلَّم المريض وقال: إنْ يلقني أو لا يلقني، فإني لا أدعُها، ثم قرأ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجّى صاحبنا(٣).

قال رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» [رواه أبو داود والحاكم].

---

(١) الجواب الكافي، ص ٢٤٥.

(٢) شذرات الذهب ٧/ ٦٩.

(٣) العاقبة، ص ١٣٦.

أخي المسلم:

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثيرٌ عظيمٌ في تكفير السَّيئات وإحباطها؛ لأنَّها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسُه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّتْ بعد عزِّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفضولها، واستخذَتْ بين يَدَي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرْجَى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّهَ العبدُ وجهُه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهَمِّه عليه. فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سرُّه وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه. وقد تخلص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرّته من ذنوبه، وأدخلته على ربِّه، لأنه لقي ربَّه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرُّها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحونٍ بالشهواتِ وحُبِّ الحياة

وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردتْ كتجرُّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان.

ماذا يملك من أمره وناصيتُه بيد الله ونفسه بيده، وقلبُه بين إصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته. فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكّله إلى غيره وكله إلى عجز وضيعه وتفريط وذنب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه، وجعله أسيرًا له. فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطرٌّ إليه على مدى الأنفاس في كل ذرَّة من ذرَّاته باطنًا وظاهرًا. فاقتُه تامة إليه، ومع ذلك فهو متخلِّفٌ عنه مُعرضٌ عنه، يتبغَّض إليه بمعصيته، مع شدَّة الضَّرورة إليه من كل وجهٍ، قد صار لذكره نسيًّا واتخذه وراءه ظهريًا، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه(١).

وقال محمد بن قاسم: «دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبد الله، تعالَ أُبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ. أنه مالي درهم يحاسبني

---

(١) الفوائد، ص ٧٣.

الله عليه. ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتى أموت، وتدفنون كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثًا غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة. وكان معه صرة فيها ثلاثون درهمًا، فقال: هذا لا بني أهداه قريب له، ولا أعلم شيئًا أحل لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أنت ومالك لأبيك**»(١) وقال: «**أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**»(٢) فكفنوني منها، فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكينًا»(٣).

من الموت لا ذو لصبرٍ ينجيه صبره
ولا لجزوع كاره الموت مَجزعُ
أرى كلَّ نفسٍ وإنْ طال عمرها
وعاشت لها سمٌّ من الموت مُنقع
فكلُّ امرىءٍ لاقٍ من الموت سكرةً
له ساعةٌ فيها يذلُّ ويضرعُ
وإنَّك مَنْ يعجبك لا تك مثله

---

(١) صحيح: أخرجه البيهقي عن جابر والطبراني عن سمرة.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي والسنائي والبيهقي.

(٣) السير ١٢/ ١٩٩.

إذا أنـت لم تصـنع كمـا كـان يصـنَعُ[١]

لما نزل الموتُ بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهدًا في طاعة الله- تعالى-، فقال: لا تقولوا هكذا؛ فإني لا أدري ما يبدو لي من الله- عزَّ وجلَّ- فإنه يقول- سبحانه-: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧][٢].

قال بعضهم: «عملوا أعمالًا كانوا يظنُّون أنها حسنات فوجدوها سيئات»[٣].

أخي الحبيب:

لا تُلهك الدنيا، ولا يغرك الأمل، ولكن:

تـزوَّد مِـنْ الـدُّنيا فإنَّـك راحـلٌ
وبادر فـإنَّ المـوت لا شـكَّ نازلٌ

فإنَّه اليوم نازل بقريب، وغدًا بحبيب، وأنت تتخطَّفك المنايا؛ فإن طال عمرك فإنَّك ترى كثرة من يقبرُ وقلَّة من يعيش.

إن تبـق تُفجـع بالأحبَّـة كلِّهـم
وفنـاءُ نفسـك لا أبالـك أفجـع[٤]

---

(١) السير ٦/ ٢٩٥.

(٢) العاقبة، ص ١٣٣.

(٣) مثل عبادات خالطها الرياء.

(٤) السير ١٢/ ٩.

لما احتضر سعيد بن مروان قال: «يا ليتني لم أكن شيئًا، يا ليتني كهذا الماء الجاري» ثم قال: «هاتو كفني: أُفٍ لك، ما أقصر طويلك وأقلَّ كثيرك»[١].

ولما احتضر عثمان بن عفان ﷺ جعل يقول ودمه يسيل: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي»[٢].

حكـــم المنيَّـــة في البريَّـــة جـــارٍ
مـــا هـــذه الـــدُّنيا بـــدار قـــرارٍ[٣]

وأي قرار في هذه الدنيا، فأين الأمم السابقة والآباء والأجداد؟ إنها والله دار العمل والتزود من الطاعة قبل الرحيل؛ فاليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل، والخروج من دار العمل إلى دار الحساب شديد كما قال الفضيل بن عياض: «الدخول في الدنيا هين، ولكن الخروج منها شديد»[٤].

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز: «كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: الله أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه،

---

(١) السير ٤/ ٢٥٠.
(٢) العاقبة، ص ١٢٢.
(٣) السير ١٩/ ٩.
(٤) مكاشفة القلوب، ص ١٥٧.

خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ، فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا، فقلت لوصيفٍ له: انظر أنائمٌ هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت»[١].

ألم تـــــر أنَّ الله يكفـــــي عبــــاده

فحســــب عبـــــاد الله بالله كافيًـــــا

وقيل إنَّ محمد بن المنكدر بكى بكاءً شديدًا عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: «اللهمَّ إنك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت»[٢].

أخي الحبيب:

هل وقفت لحظة تفكِّر في أنك ميت؟ ترى مكانك بعد الموت، ترى شدة الحساب. ثم إلى الجنة أو النار.

أؤمِّــــل أن أحيــــا وفي كــــلِّ ســــاعةٍ

تمـــــرُّ بي المــــوتى تُهـــــزُّ نعوشُـــــها

وهــــــل أنا مــــــثلهم غــــــير أن لي

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٠.

(٢) الزهر الفائح، ص ٩١.

بقـــايا ليـــالٍ في الزَّمـــان أعيشـــها[١]

قال القعقاع بن حكيم: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنةً، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء».

ويروى عن عبد الله بن المبارك أنَّه لما احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٢].

واحتضر بعض الصَّالحين فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت: عليك أبكي، قال: إن كنت باكية فابكي على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنةً.

يبكـــي علـــى ميـــتٍ ويغفـــل نفســـه
كـــأنَّ بكفيـــه أمـــانًا مِـــنْ الـــرَّدى
ومـــا الميِّـــت المقبـــور في صـــدر يومـــه
أحـــقُّ بأن يبكيـــه مـــن ميِّـــت غـــدًا[٣]

قال بكير بن عامر: «كان لو قيل لعبد الرحمن بن أبي نعم قد توجَّه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل»[٤].

وعن بكير بن عياض قال: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[١].

---

(١) وفيات الأعيان، ص ٥٥١٣.

(٢) العاقبة، ص ١٣٥.

(٣) الزهد للبيهقي، ص ١٢٧٨.

(٤) السير ٥/ ٦٢.

نعم الاستعداد، ونعمت المحافظة على أوقاته التي صرفها في طاعة الله، فهو كما قال القائل:

ولـو قيـل لي مـت قلـت سمعًـا وطاعـةً
وقلـت لـداعي المـوتِ أهـلًا ومرحبًـا[٢]

أخي الحبيب:

أين نحن من هؤلاء في الخوف من الله وفي الحرص على الطَّاعات واجتناب المحرمات؟ أين المحافظة على الأوقات والسَّاعات؟

ألم تفكِّـر أخـي الحبيـب في لحظـة احتضـارك، وأنـت تعلـم أنَّـك ستعاني منها؟ فإنَّ مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئًا، ولا يدري ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كلَّه لله[٣].

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

لا تستطيع أخي الحبيب أن ترفع يدك ولا تحرك لسانك؛ قدمك قد شُلَّت، وعينك ذرفت، والجميع حولك، ولكن:

---

(١) السير ٥/ ٣٦٦.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٣٦.

(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ١٥.

تفكَّرت في حشري ويوم قيامتي
وإصباح خدي في المقابر شاديَا
فريدًا وحيدًا بعد عزٍّ ورفعةٍ
رهينًا بجُرمي والتراب وساديَا
تفكَّرت في طول الحساب وعرضه
وذلِّ مقامي حين أعطى كتابيَا
ولكن رجائي منك ربِّي وخالقي
بأنَّك تعفو يا إلهي خطائيَا(١)

قام بلال بن سعد ينادي: «يا أهل التُّقى، إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما تنقلون من دارٍ إلى دارٍ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدُّنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنَّةٍ أو نارٍ(٢).

أخي الحبيب:

دعني أسحُّ دموعًا لا انقطاعَ لها
لو كنتَ تعلمُ ما بي كنتَ تعذُرني
كأنِّي بين تلك الأهل منطرحًا
على الفراشِ وأيدِيهم تقلِّبُني

---

(١) مكاشفة القلوب، ص ٣٥.

(٢) السير ٥/ ٩١.

كـــأنِيّ وحـــولي مـــن ينـــوحِ ومـــن
يبكـــي علـــيَّ وينعـــاني وينـــدبني
وقـــد أتـــوا بطبيـــبٍ كـــي يعـــالجني
ولم أر الطَّبيـــب اليـــوم ينفعُـــني
واشـتدَّ نزعـي وصـارَ المـوتُ يجـذبُها
مـن كـلِّ عـرقٍ بـلا رفـقٍ ولا هـونِ
واسـتخرج الـرُّوح مـنِّي في تغرغرهـا
وصـار ريقـي مريـرًا حـين غرغـرني
وغمَّضـوني وراح الكـلُّ وانصـرفوا
بعـد الإياس وجـدُّوا في شـرا الكفـنِ

* * *

هديه ﷺ(١)

كان من هديه ﷺ تسجيةُ الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطيةُ وجهه وبدنه، وكان رُبَّما يُقبِّل الميت كما قبل عثمان بن مظعون، وبكى(٢)، وكذلك الصِّدِّيق أكبَّ عليه، فقبله بعد موته، ﷺ.

وكان يأمر بغسل الميت ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر، بحسب ما يراه الغاسل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان لا يغسِّل الشُّهداء قَتْلى المعركة، وذكر الإمام أحمد أنَّه نهى عن تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد، ويدفنهم في ثيابهم، ولم يُصل عليهم.

وكان إذا مات المحرِمُ، أمر أن يغسَّلَ بماءٍ وسدرٍ، ويكفَّن في ثوبيه وهما ثوبا إحرامه: إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

وكان يأمر من ولي الميت أن يُحسن كفنه، ويكفِّنه في البياض، وينهى عن المغالاة في الكفن، وكان إذا قصَّر الكفن عن ستر جميع البدن، غطَّى رأسه، وجعل على رجليه من العُشب.

* * *

---

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٥٠٢- ٥٠٤.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن عائشة.

الوقفة الثالثة

الجنازة

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «**عودوا المريض، واتبعوا الجنائز تذكِّركم الآخرة**»(١).

والإنسان إذا تُيقِّن موته وُجِّه للقبلة على جنبه الأيمن، فإذا خرجت روحه سُنَّ تغميضه وشد لحييه، ثم يُغسَّل ويُكَفَن الرَّجل في ثلاث لفائف بيض والمرأة في خمسة أثواب «إزار وخمار وقميص ولفافتين».

وتحمل الجنازة؛ ليصلِّي عليها صلاة لا تصلى إلا مرة واحدة، وتكون آخر مرة يدخل المسجد.

واعلم- رحمك الله- أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبيهًا للناسين، وإيقاظًا للنائمين، بينما الإنسان في قيام وقعود ونزول وصعود، وخُذْ وهات ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان؟ إذ جاءه أمرٌ إلهيٌّ وحادثٌ سماويٌّ وحكم رباني فسكن حركته، واطفأ شعلته، وأذهب نفرته، تركه كالخشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع، وإن دُعي لم يجب، وإن قُطِّع أو أُحرق لم يتكلَّم.

وحملوني على الأكتاف أربعةٌ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

مــن الرِّجــال وخلفــي مــن يشــيعني

وقـــدَّموني إلى المحـــراب وانصـــرفوا

خلــف الإمــام فصــلَّى ثم ودَّعــني

صــلَّوا علــيّ صــلاة لا ركــوعَ لهــا

ولا ســـجود لعـــل الله يـــرحمني(١)

نظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلى قوم تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد:

من كان حين تصيب الشَّمس جبهته

أو الغبــار يخــاف الشــيّن والشَّــعثا

ويألــف الظــل كــي تبقــى بشاشــته

فســوف يســكن يومًــا راغمًــا جــدثًا

في قعــرٍ مظلمـــةٍ غـــبراء موحشـــة

يطيــل في قعرهــا تحــت الثــرى اللبثَــا

تجهَّـــزي بجهـــازٍ تبلغـــين بـــه

يا نفــس قبــل الــرَّدى لم تخلقــي عبثَــا(٢)

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩١.

(٢) البداية والنهاية ٩/٢٢٩.

قال منازل بن سعيد: صلَّينا خلف جنازة فيها داود الطَّائي وهو لا يراني خلفه فقال: أوه ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ثمَّ قال لنفسه:

يا داود، من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله، وكل ما هو آتٍ قريب، واعلم يا داود أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو مشئوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون فيما عليه أهل القبور يندمون، عليه أهل الدُّنيا يقتتلون وفيه يتنافسون، عليه عند القضاء يختصمون[1].

أرأيت تلك الجنازة المحمولة؟ النَّاس حولها يهرولون، لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، ربما حُركت يمنة ويسرة وهي لا ترد شيئًا من ذلك، مُقدمةٌ على سؤال وجواب وجنة ونار.

قال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي عليَّ كتابه شعرًا، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني- والله- هذه الجنائز.

وأنشأ يقول:

تروِّعنا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلَّةٍ لمغار ذئبٍ

(١) الزهد للبيهقي، ص ٢٣٧.

فلمَّــا غــاب عــادت راتعــاتِ[١]

والجنائز تمرُّ الآن ولا تدمع العيون، ولا تتحرك القلوب، ولا نرى التكدُّر في الحياة والحزن على الوجوه، إنَّها- والله- غفلة، وإلا فمن لا يعتبر بميت محمول إلى حفرة ضيقة.

أين نحن من هؤلاء؟!

قال الأعمش: «كنَّا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزّي فيها لكثرة الباكين، وإنَّما كان بكاؤهم على أنفسهم لا على الميت».

وقال ثابت البناني: «كنَّا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكيًا».

وقال إبراهيم النَّخعي: «كانوا يشهدون الجنازة فيُرىَ فيهم ذلك أيامًا. كان فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت»[٢].

كــلُّ ابــن أنثــى وإنْ طالــت ســلامته

يومًــا علــى آلــةٍ حــدباء محمــول[٣]

مع طول سلامتك واغترارك بصحَّتك وعافيتك، ألا تفكَّرت في يومٍ تُحمل فيه إلى القبر؟ إلا حملتك قدماك إلى الخير؟ ألا حملك تفكيرك إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي ستكون فيه غريبًا وأيُّ غريب؟

لــيس الغريــب غريــب الشَّــام والــيمن

إنَّ الغريــب غريــب اللحــد والكفــن

---

(١) العاقبة، ص ١٥٢.

(٢) العاقبة، ص ١٥٣.

(٣) إرشاد العباد، ص ٢٤٦.

قال داود بن المحبر عن أبيه: مَرَّ بنا الربيع بن برَّة، ونحن نسوي نعشًا لميت فقال: من هذا الغريب الذي بين أظهركم؟ قلنا: ليس بغريب، بل هو قريبٌ حبيب. قال: فبكى، وقال: من أغرب من الميت بين الأحياء؟ قال: فبكى القوم جميعًا.

وكان محمد بن المنكدر مع صفوان بن سليم في جنازة وفيها نفرٌ من العبّاد فلما صُلي عليها، قال صفوان: أما هذا فقد انقطعت عنه أعماله، واحتاج إلى دعاء من خلف بعده، قال: فأبكي والله القوم جميعًا[1].

وما هذه الأيام إلا مراحلٌ
تقرِّب من دار اللقا كل مُبعَدِ
ومن سار نحو الدار خمسين حجةً
فقد حان منه المُلتقى وكأن قد

قال أسيد بن حضير: «ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى ما يُفعل بالميت وما هو صائر إليه[2]».

وهذه هي المشاهدة الحقة والاعتبار الصحيح. والعجيب أن هناك من يرى الميت وكأنه جبلٌ من قسوته؛ فلا يهتز له طرف، ولا يتحرك

---

(١) السير ٥/ ٣٦٦.
(٢) العاقبة، ص ١٥٣.

لديه إحساس، ولا تدمع منه عين، وكأن هذا لن يُطَرقَه والنعشَ لن يُحمَله.

وما علم أنَّ الميت من على نعشه ينادي:

ما أنا وحدي نُقلت حيث ترى

كلٌّ إلى مثقله سينتقلُ(١)

لما مرت بالحسن البصري- رحمه الله- جنازةٌ قال: «يا لها من موعظة ما أبلغها! وأسرع نسيانها، يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياةً». ثم قال: «يا غفلة شاملة للقوم، كأنهم يرونها في النوم؛ ميّتُ غدٍ يدفن ميّتَ اليوم»(٢).

وشهد الحسن بن صالح ذات يوم جنازة فلما قُرِّب الميت، ليدفن نظر إلى اللحد فأرفض عرقًا، ثم غشي عليه، فحمل على السرير الذي كان عليه الميت فَرُدَّ إلى منزله(٣).

وقال إبراهيم النخعي: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عُرِفَ فينا أيامًا؛ لأنا قد عرفنا أنه قد نزل به أمرٌ صيَّره إلى الجنَّة أو إلى النَّار، وإنكم في جنازتكم تتحدثون بأحاديث الدنيا»(٤).

نسير إلى الآجال في كلِّ ساعةٍ

---

(١) الإحياء ٤/ ٥١٩.

(٢) االعاقبة، ص ١٥٣.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٥٥.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٢٢٧.

وأيامنــــا تطــــوى وهـــــن مراحـــــلُ

ولم نـــر مثـــل المــوت حقَّـــاً كأنــه

إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني باطـــلُ

ومــا أقــبح التفَّــريط في زمــن الصِّــبا

فكيــف بــه والشَّــيب في الــرأس نازلُ

أخي الحبيب:

ترحَّــل عــن الــدُّنيا بــزادٍ مــن التقــى

فَعُمـــــرك أيامٌ تُعــــد قلائـــــلُ[١]

وكان أبو هريرة إذا مر بجنازة قال: «روحي فإنا غادون، أو اغدي فـإنا رائحـون، موعظـة بليغـةٌ، وغفلـةٌ سـريعة، يـذهب الأول ويبقـى الآخر»[٢].

عن سويد بن غفلة قال: «إنَّ الملائكة تمشي أمام الجنازة وتقول: ما قدم؟ ويقول الناس: ما ترك؟».

وقال العلاء بن محمد البصري: «شهدت عطاء السلمي خرج في جنازة فغشي عليه أربع مرات حتى صلَّى عليه، كل ذلك يغشى عليه ثم يفيق، فإذا نظر إلى الجنازة خرَّ مغشيًا عليه»[٣].

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ١٢٩.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٨٣.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ٣٢٧.

وأبصر رجلٌ رجلًا آخر يضحك في جنازة فقال: «تضحك في جنازة! لا أكلِّمك أبدًا»[١].

وتضحك يا بن آدم من مواطن الموت وفي ديار الأموات! أنت يا بن آدم كما قال الحسن: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بَلِيَّةٌ نازلة، ونعمة زائلة، ومنية قاتلة»[٢].

وقال: «مات آخر لنا فصلَّينا عليه، فلما وضع في قبره ومُدّ عليه الثَّوب، جاء صلة بن أشيم وأخذ بناحية الثوب، ثم نادى: يا فلان بن فلان.

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ
وإلا فإِنِّي لا أخالك ناجيًا

قال: فبكى وأبكى الناس»[٣].

قدِّم لنفسك ما استطعت من التُّقى
إنَّ المنيَّة نازل بك يا فتى
أصبحت ذا مزح كأنَّك لا ترى
أحبابَ قلبك في المقابر والبلى

---

(١) الزهد، ص ٢٣.

(٢) الحسن البصري، ص ٤٤.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٤١.

قال الحسن البصري لرجل حضر جنازة: «أتراه لو رجع إلى الدنيا لعمل صالحًا؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن هو فكن أنت».

الموت مُلاقينا مهما انشغلنا أو تناسينا. سيطرق الباب، وسيأخذ الأحباب والأصحاب.

هــو المــوتُ مــا منــه مــلاذٌ ومهــربُ
مــتى حُــطَّ ذا عَــنْ نعشــه ذاك يركَــبُ
نشـــاهد ذا عـــين اليقـــين حقيقـــةً
عليــه مضــى طفــلٌ وكهــلٌ وأشــيبُ
ولكـــن عـــلا الـــرَّانُ القلـــوبَ كأنَّنـــا
بمـــا قـــد علمنـــاه يقينًـــا نكـــذِّبُ

أخي، كلُّنا كذلك:

نؤمِّـــل آمـــالًا ونرجـــو نتاجهـــا
وعَـــلَّ الـــرَّدى ممَّـــا نرجيـــه أقـــربُ
ونبـني القصـور المشـمخرات في الهـوى
وفي علمنـــا أنَّا نمـــوت وتَخـــربُ
إلى الله نشـــكو قســـوةً في قلوبنـــا
وفي كــلِّ يــومٍ واعــظُ المــوت ينــدبُ

أبصر أبو الدرداء رجلًا في جنازة وهو يقول: جنازةً من هذا؟ فقال أبو الدرداء: هذا أنت هذا أنت، يقول الله- تعالى-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[1] [الزمر: ٣٠].

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢٠١.

هديه ﷺ[١]

وكان ﷺ إذا صلَّى على ميّتٍ، تبعه إلى المقابر ماشيًا أمامه. وهذه كانت سنَّة خلفائه الرَّاشدين من بعده، وسنَّ لمن تبعها إن كان راكبًا أن يكون وراءها، وإن كان ماشيًا أن يكون قريبًا منها، إمَّا خلفها، أو أمامها، أو عن يمينها أو عن شمالها. وكان يأمر بالإسراع بها، حتى إن كانوا ليَرملون بها رَملًا.

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى تُوضَع وقال: «**إذا تبعتهم الجنازة فلا تجلسوا حتى توضع**»[٢].

(١) للاستزادة: انظر زاد المعاد ١/ ٥١٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد.

الوقفة الرابعة:

القبر

أخي الحبيب:

أما وقد أُدخلت المقبرة محمولًا، وقُربت من الأرض لتُنزل في حفرة ضيقة مظلمة موحشة، أنزلك أقرب أقربائك وأحب أحبابك، وعندها استقررت في لحدك. بسم الله وعلى سنة رسول الله، ووضعت على جنبك الأيمن، وكشف غطاء وجهك، ووضع اللِّبْنُ على لحدك، وبدأ حثو التراب عليك، ثم إذا فرغوا وقف أحدهم وقال: استغفروا لأخيكم، وسَلُوا له التَّثبيت؛ فإنه الآن يُسأل.

قال ﷺ: «**ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه**»(١).

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى، حتى يُبلل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»(٢).

فإن تنج منه نتج من ذي عظيمةٍ

وإلا فإني لا أخالك ناجيًا

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة.

(٢) الزهد، ص ١٨٩. والحديث حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن عثمان.

ولما احتضر نافع بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ذكرت سعدًا وضغطة القبر (أي حديث عائشة – رضي الله عنها– أن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطةً لو كان أحد ناجيًا منها نجا سعد بن معاذ**»[١].

وأنزلــوني في قــبرٍ علــى مهــلِ
وأنزلــوا واحــدًا مــنهم يلحــدني
وكشــف الثَّـوب عـن وجهـي لينظـرني
وأســبل الــدَّمع مــن عينيــه أغــرقني
فقــام محتــدمًا بالعــزم مشــتملًا
وصَـفَّف اللـبن مـن فـوقي وفـارقني
وقــال هُلُّــوا عليــه الـتراب واغتنمـوا
حُسن الثَّواب من الرحمن ذي المنن[٢]

لحظات ويتفرَّق من حولك، وتبقى رهين عملك، ويصبح قبرك روضة من رياض الجنة– جعلنا الله كذلك– أو حفرة من حفر النار– والعياذ بالله.

مر فارسي بغلام، فقال: يا غلام، أين العمران؟ اصعد الرَّابية تشرف عليهم، فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: إن الغلام لجاهل أو

(١) السير ٥/ ٩٩ والحديث صحيح: أخرجه أحمد عن عائشة.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٢.

حكيم، فرجع فقال: سألتك عن العمران، فدللتني على مقبرة، فقال الغلام: «لأنِّي رأيت أهل الدنيا ينتقلون إليها ولا يرجعون»[١].

والناس في الدنيا لاهُون في معايشهم، مشغولون بدنياهم، أما صاحب القبر فقد وُسِّد ولحد في التُّراب.

ثوى مفردًا في لحده وتوزَّعت
مواريثه أولاده والأصاهر
وأحنوا على أمواله يقسمونها
فلا حامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدُّنيا ويا ساعيًا لها
ويا آمنًا من أن تدور الدَّوائر[٢]

انظر لحالي وتأمَّل في مالي:

أصبحت بقعر حفرتي مرتهنًا
لا أملك من دنياي إلا كفنًا[٣]

أما- والله- سيأتيك مثل يومي، وسيمر عليك ما مر بي، ألا فاعتبر.

---

(١) الذراري في ذكر الزراري، لابن العديم، بتصرف، ص ٦٢.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٢٦.

(٣) شذرات الذهب ٥/ ٢٤٩.

قال أنس بن مالك: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله- تعالى-؛ إما برضاه وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذًا كتابك؛ إما بيمينك وإما بشمالك، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة[1].

يوم القيامة لا مالٌ ولا ولد

وضمَّة القبر تُنسي ليلة العرس

كان داود الطائي في دار واسعة خربة، ليس فيها إلا بيت وليس على بيته باب، فقال بعض القوم: «أنت في دار وحشة، فلو اتخذت لبيتك هذا بابًا، أما تستوحش؟ فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا.

ومشيّدًا دارًا ليسكن داره

سكن القبور وداره لم تسكنِ[2]

دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم فإذا رجل يُدفن، فجاء حتى وقف على القبر، فجعل ينظر إلى الرجل وهو يُدفن، فجعل يقول: مالِكٌ غدًا هكذا يصير، وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم

(١) التذكرة، ص ٩٨.

(٢) السير ٧/ ١٦٩.

يزل يقول غدًا مالِكٌ يصير، حتى خرّ مغشيًا عليه في جوف القبر، فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشيًا عليه[١].

تفكَّــــر في مشـــــيبك والمــــآب
ودفنُــــك بعـــد عِــزِّك في الـــتُّراب
إذا وافيـــت قـــبرًا أنـــت فيـــه
تقـــيم بـــه إلى يـــوم الحســـاب
وفي أوصـــال جســمك حــين تبقــى
مقطعـــــةً ممزقـــــة الإهـــــاب
فطلِّـــق هـــذه الـــدُّنيا ثـــلاثًا
وبادر قبـــل موتـــك بالمتـــاب

أخي الحبيب:

نصــحتُكَ فاســتمعْ قــولي ونصــحي
فمثلُـــكَ يُـــدلُّ علـــى الصَّـــواب
خُلقنـــا للمـــات ولـــو تركنـــا
لضــاق بنــا الفســيح مــن الرحــاب
يُنـــادى في صـــبيحة كـــلِّ يـــومٍ
لِـــدُوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب[٢]

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٢٨٠.

(٢) إرشاد العباد ٤٩.

وكان سلفنا الصالح لا يفارقهم التفكير في الآخرة؛ فإن رأوا من نعيم الدنيا دعوا الله نعيم الجنة، وإن رأوا من شدة الدنيا وقسوتها تعوذوا بالله من النار.

كان هشام بن أبي عبد الله إذا فقد السراج في بيته تملَّل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك فقال: «إذا فقدت السراج ذكرت ظلمة القبر»(١).

في ظلمـــة القـــبر لا أمٌّ هنـــاك ولا
أبٌ شـــــــفيقٌ ولا أخ يُؤنسُـــــــني

وذكر بعض الأفاضل أنه اجتاز جسرًا معلقًا مع أحد الدعاة، ولما رأى ارتفاع الجسر وضيقه وظهرت عليه آثار الخوف قال له الداعية: هل تذكرت الصراط ودقته؟

هل منا من اعتبر بتلك الأمور؟ هل منا من وقف على القبر واعتبر وتفكر في المآل؟

خرج داود الطائي في جنازة، فقعد ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريبًا منه فتكلم فقال: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب».

واعلم- يا أخي- أنَّ كلَّ ما يشغلك عن ربِّك فهو عليك مشئوم، واعلم أن أهل القبور يفرحون بما يقدمون، ويندمون على ما

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤٩.

يخلفون، أهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون[١].

هذه المقابر كم حوت؟ وبأجسامهم ماذا فعلت؟ ظاهرها السكون والصمت. قبورٌ متفرقة. أما ماذا بداخلها فاستمع:

إنِّي سألت القبر: ما فَعلت
بعدي وجوه فيك مُنعَفِرة
فأجابني: صيرت ريحهم
تؤذيك، بعد روائح عطرة
وأكلت أجسادًا منعمةً
كان النَّعيم يهزُّها نضرة
لم أبقِ غير جماجم عَريَت
بيضٍ تلوح وأعظم نخرة[٢]

كل امرىءٍ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوي مدة الأجل، وتقصر عن الزِّيادة في السعي والعمل[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٥.

(٢) أبو العتاهية، ص ٢٠٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ١٢٣.

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما أشرف عليها قال: يا أهل القبور، أخبرونا عنكم أو نخبركم، أما خبر مَن قبَلنا، فالمال قد اقتسم، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قومٌ غيركم، ثم قال: أما- والله- لو استطاعوا لقالوا: لم نر زادًا خيرًا من التقوى[1].

سألت الدَّار تخبرني عن الأحباب ما فعلوا

فقالت لي أناخ القوم أيامًا وقد رحلوا

فقلت: فأين أطلبهم وأيٌّ منازل نزلوا

فقالت بالقبور وقد لقوا والله ما فعلوا

تمر بنا الأيام سراعًا، وننسى من دفناه من أحبابنا وأقاربنا. كم مرة توقفنا عن الحديث في الدنيا وتحدثنا عن الموت والحساب. كم مرة تفكّرنا في القبر؟

قال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: «يا فلان، لقد أرقت البارحة تفكُّرًا في القبر وساكنه، إنَّك لو رأيت الميِّت في قبره بعد ثلاثٍ لاستوحشت منه بعد طول الأنس به، ولرأيت بيتًا تجول فيه

(١) التذكرة، ص ١٣.

الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغيرالريح، وتقطع الأكفان.

وكان ذلك بعد حُسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب» ثم شهق شهقة ثم خرّ مغشيًا عليه(١).

تنبَّه قبل الموت إن كنت تعقل
فعمَّا قليل للمقابر تُنقلُ
وتُمسي رهينًا في القبور وتنثني
لدى جَدثٍ تحت الثَّرى تتجندلُ
فريدًا وحيدًا في التُّراب وإنَّما
قرين الفتى في القبر ما كان يعملُ(٢)

كان عمر بن عتبة ﷺ يخرج كل ليلة إلى المقابر، ويقول: «يا أهل القبور! طويت الصحف، ورفعت الأقلام». ثم يصف قدميه، ويصلِّي إلى الصَّباح.

أتيت القبور فناديتها
فأين المعظَّم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه
وأين العظيم إذا ما افتخر

---

(١) العاقبة، ص ١٩١.

(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان، ص ٢٩١.

تنـــادوا جميعًـــا فـــلا مخـــبرٌ

ومـــاتوا جميعًـــا وأضـــحوا عـــبر

وقد شيّع عمر بن عبد العزيز جنازة، فلما انصرفوا تأخَّر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، جنازةٌ أنت وليه تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم، ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبد العزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبَّة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت الدَّم، وأكلت اللحم. ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى، قال: نزعت الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين. ثم بكى عمر، فقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيّها يموت، فلا يغرَّنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها[(١)].

ضـعوا خـدي علـى لحـدي ضـعوه

ومـــن عفـــر الـــتُّراب فوسِّـــدوه

وشـــقُّوا عنـــه أكفـــانًا رقاقًـــا

وفي الـــرَّمس البعيـــد فغيِّبـــوه

فلـــو أبصـــرتموه إذا تقضَّـــت

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٦١.

صـــــبيحة ثالــــثٍ أنكرتمـــــوه

وقـــد ســـالت نـــواظر مقلتيـــه

علـــى وجناتـــه وانفـــضَّ فـــوه

وناداه البِلـــى: هـــذا فـــلان

هَلمُّـــوا فـــانظروا هـــل تعرفـــوه

حبيـــبكم وجـــاركم المفـــدى

تقـــادم عهـــده فنســـيتموه[1]

قال بعض الحكماء: «أربعة أبحر لأربعة، الموت بحر الحياة، والنَّفس بحر الشَّهوات، والقبر بحر النَّدامات، وعفو الله بحر الخطيئات[2].

فنسأل الله العظيم أن يجعل القبر خير بيتٍ نعمره ونسكنه؛ حتى نصير إلى جناتٍ عرضها السَّماوات والأرض في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

قال أبو عياش القطان: «كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها مُنيبة، ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها، وتعجَّب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذا أتاه آتٍ، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت؟ فوثب الحسن فدخل

(١) التذكرة، ص ١١٤.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص ١٩٣.

عليها، فلما نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتي، ما يبكيك؟ فقالت له: يا أبا سعيد، التُّراب يُحثَى على شبابي، ولم أشبع من طاعة ربِّي، يا أبا سعيد، أنظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبرًا واسعًا، وكفِّنها بكفنٍ حسن، والله لو كنت أُجهز إلى مكَّة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظُّلمة والدُّود»[1].

إنَّ الأمـــاكن في المعـــاد عزيـــزةٌ

فـــاختر لنفســك إن عقلــت مكـــانَا

قال أبو الدرداء: «ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري»[2].

وهذا هو الفقر الأبدي لا فقر الدنيا؛ ففي هذه الحفرة الضَّيِّقة لا عمل تزيد به الحسنات أو تحط به الخطيئات إلا ما قدمت؛ فاليوم حساب بلا عمل.

شهد عمر بن ذر جنازة وحوله الناس، فلما وضع الميت على شفير القبر بكى عمر، ثمَّ قال: «أيها الميت أما أنت فقد قطعت سفر الدنيا، فطوبى لك إن توسدت في قبرك خيرًا»[3].

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القبور قال: «ما أحسن ظواهرك، إنَّما الدواهي في بواطنك»

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٧.

(٢) العاقبة، ص ١٩٠.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ١١٦.

ياخـــدُّ إنَّـــك إن توسَّـــد لِيِّنـــا
وُسِّـدْتَ بعـد المـوت صـم الجنـذلِ
فاعمــل لنفسـك في حياتـك صـالحًا
فلتنــــدمنَّ غـــدًا إذا لم تفعـــلِ

قال بعضهم: كفتك القبور مواعظ الأمم السَّالفة[1].

مـالي وقفـت علـى القبـور مسـلِّمًا
قـبر الحبيـب فلـم يـرد جـوابي
أَجِـبْ، مالــك لا تــرد جوابنــا
أنسـيت بعـدي خلَّـة الأحبـاب
قـال الحبيـب: وكيـف لي بجـوابكم
وأنا رهـين جنـادلٍ وتـراب
أكـل الـتراب محاسـني فنسـيتكم
وحُجِبـتُ عـن أهلـي وعـن أقـراني
فعلـيكم مـنِّي السَّـلام تقطَّعـت
مـنِّي ومـنكم خلَّـة الأحبـاب[2]

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ١٣٠.

(٢) ديوان الإمام علي، ص ٣٠.

وبات هرم بن حيان عند حممة صاحب رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال له هرم: يا حممة، ما أبكاك؟ قال: «ذكرت ليلةً صبيحتها تُبعثر القبور، فيخرج من فيها»[١].

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته، فوقف على قبره، وبكى ثم قال: «والله يا أخي، لا تقرُّ عيني بعدك حتى أعلم إلى ما صرت إليه، ولا والله أعلم ذلك ما دمت حيًا»[٢].

سلامٌ على أهل القبور الدوارس
كأنَّهمو لم يجلسوا في المجالس
ولم يبلُغوا من بارد الماء لذَّة
ولم يَطْعموا ما بين رطبٍ ويابس
ولم يك منهم في الحياة منافس
طويل المنى فيها كثير الوساوس
لقد صرتم في موحش التُّرب والثَّري
وأنتم بها ما بين راج وآيس
فلو عقل المرء المنافس في الذي
تركتم من الدُّنيا إذا لم ينافس[٣]

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢١٤.
(٢) العاقبة، ص ١٥٣.
(٣) أبو العتاهية، ص ٢٢٤.

قال سفيان الثوري: «من أكثر من ذكر القبر وجده روضةً من رياض الجنَّة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرةً من حفر النَّار[١]».

تــزوَّد قرينًــا مــن فِعالــك إنَّمــا
قــرين الفــتى في القــبر مـا كـان يفعـلُ
فـإنْ كُنـت مشـغولًا بشـيءٍ فـلا تكـن
بغــير الــذي يرضــى بــه الله تشــغلُ
فلــن يصــحب الإنســان بعــد موتــه
إلى قــبره إلا الــذي كــان يعمــلُ
ألا إنَّمــا الإنســان ضــيفٌ لأهلــه
يقــيم عنــدهم قلــيلًا ثمَّ يرحــلُ[٢]

ووالله، لم نر أحدًا لم يرحل. رحل الصَّغير والكبير. من طال بهم العمر، ومن قصر بهم الأجل.

شيَّع الحسن جنازة فجلس على شفير القبر، فقال: «إنَّ أمرًا هذا آخره لحقيقٌ أن يُزهَد في أوله[٣]، وإنَّ أمرًا هذا أوله[٤] لحقيق أن يُخاف آخره»[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب، ص ١٩٤.
(٢) عقد اللؤلؤ، ص ٩٠.
(٣) يعني الدنيا.
(٤) يعني الموت.
(٥) المدهش، ص ١٩٠.

وقال أحمد بن حرب- رحمه الله-: «تتعجَّب الأرض ممن يَمْهَدُ مضجعه، ويسوي فراشه للنَّوم، تقول: يا بن آدم، ألا تذكر طول رقادك في جوفي، وما بيني وبينك شيءٌ[١]؟

أخي الحبيب:

أيُّ شيءٍ بينك وبين الموت؟! كم من أصبح ولم يمس وكم من أمسى ولم يصبح.

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبد القدوس.

الموت بابٌ وكلُّ النَّاس داخله
فليت شعري بعد الباب ما الدَّارُ

فأجاب بقوله:

الدَّار جنَّةُ عدن إن عملت
بما يرضي الإله وإن فرَّطت فالنَّارُ
هما محلَّان ما للنَّاس غيرهما
فانظر لنفسك ماذا أنت مُختار[٢]

وكان مغيث الأسود يقول: «زوروا القبور كلَّ يوم بفكركم، وتوهَّموا جوامع الخير كلَّ يومٍ في الجنة بعقولكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين

---

(١) العاقبة، ص ١٩٥.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ١٣١.

إلى الجنة أو النار بِهَمَمكم، وأشعِروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»(١).

ومن تذكر الموت وانقطاع العمل والتزود من الحسنات فإن ذلك يبعث الهمم ويقوي العزائم. لو أراد الميت تسبيحة واحدة أو تحميدة واحدة لم يستطع. فالبدار البدار.

كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد. من ذا الذي يصلّي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيُّها النَّاس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثَّرى فراشه، والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله؟» ثمَّ يبكي حتى يسقط مغشيًا عليه(٢).

أمرُّ على المقابر كلَّ حينٍ
ولا أدري بأيِّ الأرض قبري
وأفرح بالغنى إن زاد مالي
ولا أبكي على نقصان عمري

قال السري: «اجعل قبرك خزانتك، احشوها من كلَّ عملٍ يمكنك، فإذا وردت على قبرك سرَّك ما ترى فيه»(٣).

(١) حلية الأولياء ١٠/ ١٤٣.
(٢) العاقبة، ص ٤٠.
(٣) الزهد للبيهقي، ص ٢٢٩.

ولو أجاب الميِّت لقال:

يا أيُّهـــا النَّــــاس كـــان لي أمـــلٌ
قصَّـــر بي عــــن بلوغـــه الأجـــلُ
فليتـــــق الله ربَّــــــه رجـــــلٌ
أمكنـــــه في حياتـــــه العمـــــل
مــا أنا وحــدي نقلــت حيــث تــرى
كـــــلٌّ إلى مثلــــــه ســــــينتقل[١]

وقد مرّ علي بن أبي طالب ﷺ بالمقابر فوقف عليها، فقال: «السَّلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللهمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنَّا وعنهم، طوبي لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله- تعالى-»[٢].

وكان بَدْءُ توبة داود الطَّائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مقـــيمٌ إلى أن يبعـــث الله خلقـــه
لقـــاؤك لا يُرجـــى وأنـــت قريـــب
تزيـــد بِلـــى في كـــلِّ يـــومٍ وليلـــةٍ

(١) مكاشفة القلوب، ص ١٣٨.

(٢) العاقبة، ص ١٩٦.

وتُسلى كما تُبلى وأنت حبيبُ[١]

أخي الحبيب: أين نحن من سنَّة زيارة المقابر والاتعاظ بما نراه فيها من الأموات الذين أخذوا بدون علمٍ ودُفنوا بدون ردٍّ؟

قف بالمقابر واذكر إن وقفت بها

لله درُّك ماذا تستر الحفر

ففيهمو لك يا مغرور موعظة

وفيهمو لك يا مغرور معتبر

كانوا ملوكًا تواريهم قصورهم

دهرًا فوارتهم من بعدها الحفر[٢]

يعجب الإنسان حين يرى البعض وهم في المقابر يتضاحكون، وكأنَّ أديم الارض لم يَحْوِ رفات الأموات! تراه لاهيًا ساهيًا، ربَّما تحدَّث طويلًا في كلِّ شيءٍ سوى هذا اللحد وذاك القبر! والميِّت بين يديه! أليست غفلة؟! وأي غفلة من هذا؟! وأين؟ في وسط قبور متراصة وجيرة متباعدين.

روى عن الحسن البصري أنه رأى رجلًا يأكل في المقابر، فقال: «هذا منافق؛ الموت بين عينيه، وهو يشتهي الطَّعام»[٣].

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٢.

(٢) موارد الظمآن ٢/ ٧٤.

(٣) تنبيه الغافلين ٢/ ٦١٧.

لو زرت المقابر ورأيت البنيان حولها لردَّدت:

لكـــــلِّ أناس مقــــبر بفنـــــائهم

فهـــم ينقصـــون والقبـــور تزيـــد

هـــم جيـــزة الأحيـــاء أمـــا محلهـــم

فـــدانٍ وأمـــا الملتقـــى فبعيـــد[1]

أخي:

تـذكَّر إذا بـدأ النـاس ينصرفون مـن المقـبرة، وقـد وُسِّـدتَ قـبرك، وأدخلت لحدك، عاد الصمت والسكون. رحمك الله وآنس وحشتك.

آنـــــــــس اللهُ وحشــــــــــتك

رَحِــــــــــمَ اللهُ وحــــــــــدتك

أنــــــتَ في صــــــحبةِ البلــــــى

أحســــــــنَ اللهُ صــــــــحبتَك[2]

* * *

(١) وفيات الأعيان ٧/ ٢٤.

(٢) مكارم الأخلاق، ص ١٠.

القبر

هديه ﷺ (١)

وكان من هديه ﷺ ألَّا يدفن الميت عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، ولا حين يقوم قائم الظهيرة، وكان من هديه اللَّحد وتعميقُ القبر وتوسيعه من عند رأس الميت ورجليه، ويُذكر عنه أنه كان إذا وضع الميِّت في القبر قال: «**بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله**»(٢).

ويذكر عنه أيضًا أنه كان يحثو التُّراب على قبر الميت إذا دُفن من قِبَلِ رأسه ثلاثًا. وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التَّثبيت، وأمرهم أن يسألوا له التَّثبيت.

ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجرٍ، ولا بحجرٍ ولَبِنٍ، ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها.

ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدًا، ولعن زوَّارات القبور.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ١/ ٥٢١ وما بعدها.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة عن ابن عمر.

وكـان هديـه ﷺ أن لا تُهـانَ القبـور وتُوطَـأ، وألا يُجلـس عليهـا، ويُتَّكأ عليها، ولا تُعظَّم بحيث تتخذ مساجد، فيصلي عندها وإليها، وتتخذ أعيادًا وأوثانًا.

الوقفة الخامسة

التعزية

قال ﷺ: «**ما من مؤمن يعزِّي أخاه بمصيبةٍ إلا كساه- الله سبحانه- من حُلَل الكرامة يوم القيامة**»(١).

بعد الموت جاء المعزُّون زرافاتٍ ووحدانًا، امتثالًا لأمر ربِّهم واهتداءً بسنَّة نبيهم ﷺ، جاءوا يعزون أهل الميت، حبيبهم وأنيسهم؛ ولكنَّهم رضوا بقضاء الله وقدره، كيف لا وهم يرغبون فيما عند الله من الأجر العظيم والثواب الجزيل؟: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦- ١٥٧].

قال ابن جريج: «من لم يتعزَّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم».

وعزَّى الشَّافعي رجلًا بهذين البيتين:

إني معزيك لا أراني على ثقةٍ
من الخلود ولكن سُنَّة الدِّين
فما المُعَزَّى بباقٍ بعد ميته
ولا المُعَزِّي ولو عاشا إلى حينِ

(١) حسن: أخرجه ابن ماجة.

قال مشيط بن عجلان: «النَّاس رجلان، فمتزوِّدٌ من الدُّنيا ومتنعمِّمٌ فيها، فانظر أيُّ الرجلين أنت؟ إِنّي أراك تحبُّ طول البقاء في الدنيا فلأيِّ شيءٍ تحبَّه؟ أن تطيع الله- عزَّ وجلَّ-، وتحسن عبادته، وتتقرَّب إليه بأعمال صالحة، فطوبى لك، أم لتأكل، وتشرب، وتلهو، وتلعب، وتجمع الدُّنيا، وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء.

ونحن- يا أخي- كما قال بعض الزُّهاد: «لنا من كلِّ ميت عظةٌ بحاله وعبرةٌ بمآله»(١).

سير المنايا إلى أعمارنا خبب
فما تبين ولا يعتاقها نَصَبُ
كيف النَّجاء وأيديها مُصممة
بذبحنا بمُدى ليست لها نصبُ
وهل يؤمل نيل الشَّمل مُلتئمًا
سفر لهم كل يوم رحله عجبُ(٢)

قال عبيد بن عمير: «كان لرجل ثلاثةُ أخلَّاء بعضهم أخصُّ له من بعض، فنزلت به نازلةٌ، فلقي أخصَّ الثلاثة به فقال: يا فلان، إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تُعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل،

---

(١) العاقبة، ص ٤٣.

(٢) إرشاد العباد، ص ٨٢.

فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنَّه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحبُّ أن تُعينني، قال: فأنطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تُعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال: فالأول ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء، والثاني أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا وتركوه، والثالث هو عمله وهو معه حيثما ذهب،ويدخل معه حيثما دخل»[1].

النَّفس تبكي على الدُّنيا وقد علمت
أنَّ السَّلامة فيها تَرْكُ ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلا التي كان قبل الموت بانيها
فإنْ بناها بخيرٍ طاب مسكنها
وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعُها
ودورنا لخراب الدَّهر نبنيها
كم من مدائنٍ في الآفاق قد بُنيت
أمست خرابًا ودان الموت دانيها

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٦٩.

لكـلِّ نفـسٍ وإن كانـت علـى وجـلٍ
مِـــنْ المنيـــة آمـــال تقوّيهـــا
فـــالمرء يبســـطها والـــدَّهر يقبضـــها
والـنفس تنشـرها والمـوت يطويهـا[1]

وسُئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

أخي الحبيب:

عِـــشْ مـــا بـــدا لـــك ســـالمًا
في ظـــل شـــاهقة القصـــور
يُســـعى عليـــك بمـــا اشتهـــ
يـــت لـــدى الـــرواح وفي البكـــور
فـــإذا النفـــوس تقعقعـــت
في ضـــيق حشـــرجة الصُّـــدور
فهنـــاك تعلـــم موقنًـــا
مـــا كنـــت إلا في غـــرور

---

(١) ديوان الإمام علي، ص ٢١٠.

كان حميد الطويل قائمًا يصلِّي فمات، فذكروه لابن عون وجعلوا يذكرون من فضله، فقال: احتاج حميد إلى ما قدَّم[(١)].

وقال أبو السور حسان بن حريث وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. قال: هما نشرتان وطيَّة، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك منشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا متَّ طُويتْ، ثم إذا بعثت نشرت ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٢)] [الإسراء: ١٤].

فصحيفة الحي كتابٌ يُدوَّن فيه، حتى إذا انتهى عمره طُويت تلك الصحائف للحساب. فصحفُنا منشورة، ولكن ماذا يدون فيها؟

عن الحسن قال: قال رجل لأخيه: أي أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك إذًا؟ فما رُؤي ضاحكًا حتى مات[(٣)].

وقد أتانا ورود النَّار ضاحية
حقًّاً يقينًا ولمَّا يأتينا الصَّدرُ

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٢.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٠.
(٣) التذكرة، ص ٣٩٠.

عجبًا لذاكر الموت كيف يلهو؟! ولخائف الفوت كيف يسهو؟! ولمتيقِّن حلول البلى ثم يزهو! وإذا ذكرت له الآخرة مرّ يلغو![1].

فما لك يوم الحشر سوى الذي تزوَّدته

قبــــــل الممـــــــات إلى الحشـــــــر

إذا أنــتَ لم تــزرعْ وأبصــرتَ حاصــدًا

نــدمت علــى التَّفــريط في زمــن البــذرِ

قال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم: عظني. فقال: «اضطجع، ثمَّ اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحبُّ أن يكون فيك تلك الساعة فجدَّ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فَدَعْه الآن».

ووالله لو اضطجعنا وأقمنا الموت عند رؤوسنا لتركنا الكثير من أعمالنا، وأقوالنا، وأفعالنا، ولظهر الاجتهاد في العمل والإخلاص في النيَّات، ولتضاءلت الحياة؛ استعدادًا للمات.

عن ثابت بن مطرف أنه كان يقول: «يا إخوتاه، اجتهدوا في العمل؛ فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجاتٌ في الجنَّة، وإن يكن الأمر شديدًا كما نخاف ونحاذر لم نقل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، قد عملنا فلم ينفعنا ذلك».

اعمــلْ فأنــتَ مــن الــدُّنيا علــى حــذرٍ

---

(١) المدهش، ص ١٨١.

واعلــم بأنَّــك بعــد المــوت مبعــوثُ

واعلـمْ بأنَّـك مـا قـدَّمت مـن عمـل

محصـيً عليـك ومـا جمعـت مـوروثُ[١]

وقال رجلٌ لزهير بن نعيم: يا أبا عبد الرحمن، توصي بشيء؟ قال: «نعم، احذر أن يأخذك الله وانت على غفلة»[٢].

وهذه هي النصيحة الباقية، والمحبة في الله؛ حثٌّ على الطاعات، وتواصٍ باجتناب المحرمات.

لا أُلفينَّـــك بعـــد المـــوت تنـــدبُنِي

وفي حَيَـــاتِي مـــا زودتـــنِي زادَا[٣]

قال أبو حازم: «يا بن آدم، بعد الموت يأتيك الخبر»[٤].

وهو خبر لا ينفع فيه الندم، ولا يجدي معه التحسُّر.

وفي البعـث بعـد المـوت نشـرُ صـحائفٍ

وميـــزانُ قســـطٍ طـــائشٌ أو مثقَّـــلُ

ونشـرٌ يشـيب بطفـلٍ مـن عظـم هولـه

وفيـــه الجبـــالُ الراســـياتُ تزلـــزلُ[٥]

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٦.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ١٨٧.

(٤) شرح الصدور، ص ٢٢.

(٥) عقد اللؤلؤ، ص ٧٩.

فتوهَّم يا أخي أنَّ الكتب قد تطايرت، والموازين قد نصبت، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان ابن فلان[١].

قال إبراهيم بن أبي عبدة: بلغني أن المؤمن إذا مات تمنَّى الرجعة إلى الدُّنيا؛ ليس ذلك إلا ليكبِّر تكبيرةً، أو يهلل تهليلةً، أو يسبح تسبيحةً[٢].

والوقت فيه للحيِّ مُتَّسعٌ، ولكن تُترك تلك الدَّقائق النَّفيسة تذهب سُدىً، فإنَّ الزَّمن يمرُّ مرَّ السَّحاب، ويجريْ جري الرِّيح، ومهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير ما دام الموت هو نهاية كلِّ حيٍّ. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا كــــان آخــــر العمـــــر مـــــوتًا

فســــــــواءٌ قصــــــيره والطويــــــــل

وعند الموت تنكمشُ الأعوامُ والعقودُ التي عاشها الإنسان حتى لكأنَّها لحظاتٌ مرَّت كالبرق الخاطف[٣].

نســـير إلى الآجـــال في كـــلِّ لحظـــةٍ

وأيامنـــا تطـــوى وهــــن مراحـــلُ

ولم أر مثــــل المـــوتِ حقَّـــاً كأنَّـــه

(١) التذكرة، ص ٢٩٤.

(٢) شرح الصدور، ص ٨.

(٣) الوقت في حياة المسلم، ص ٩.

إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني باطـــلُ

ومــا أقــبح التفــريطَ في زمــن الصِّــبا

فكيــف بــه والشَّــيب للــرأس شــاعل؟

ترحَّــل مــن الــدُّنيا بــزادٍ مــن التُّقــى

فعُمــــرك أيامٌ وهـــــن قلائـــــلُ[1]

فجـدير بمـن المـوت مصـرعه، والـتراب مضـجعه، والـدود أنيسـه، ومنكرٌ ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا لـه، ولا استعداد إلا لاجله، ولا تـدبير إلا منه ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربُّص إلا لـه، وحقيقٌ بأن يعدّ نفسه مـن المـوتى، ويراهـا في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب والبعيد ما ليس بآتٍ[2].

أخي الحبيب:

إذا كــان غَــيرُك قــد أجــاب الــدَّاعي

فكــأنَّني بــك قـــد نعــاك النَّـــاعي

قـــد طـــال باعـــك والمنيَّـــة بعـــد ذا

ليســـت إذا طالـــت قصـــيرة باع

---

(١) عقد اللؤلؤ، ص ٣٥١.

(٢) الإحياء ٤/ ٤٧٥.

قال الأوزاعي: «من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أنَّ منطقه من عمله قلَّ كلامه»[١].

لقــد أخبرتــك الحــادثات نزولهــا
ونادتــك إلَّا أنَّ سمعــك ذو وقــر
تنــوحُ وتبكــي للأحبَّــة إنْ مضــوا
ونفســك لا تبكــي وأنــت علــى الأثــرِ

روى عن بعض السَّلف أنَّ رجلًا جاءه وهو يأكل طعامًا، فقال له: قد مات أخوكَ، فقال: أقعد وكلُ، فقد علمت، فقال: من أعلمك وما سبقني أحد؟ قال: قوله- تعالى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢] [آل عمران: ١٨٥].

فإن استطعت- يا أخي- أن تُعدَّ لك كل يوم زادًا لما بين يديك فافعل، فإن الأمر أعجل من ذلكن فتزوَّد يا أخي لنفسك وخذ في جهازك، وكن وصي نفسك، واعلم يا أخي أن الليل والنهار يسرعان في هدم نفسك وفناء عمرك وانقضاء أجلك، فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم مسكنك ومصيرك ومستقرك ومنزلك. فانظر لنفسك وأقضِ ما فاتك، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٥٨.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٢٠.

بغتة. فكأنك بالقيامة وقد قامت، وبالنفس الأمارة وقد لامت، وانفجعت عينٌ طال ما نامت، ونحرت قلوب العصاة وقد هامت[١].

إنَّ في المـــوت والمعـــاد لشـــغلًا
وادّكـــارًا لـــذي النُّهـــى وبلاغَـــاً
فـــاغتنم نعمتـــين قبـــل المنـــايا
صـــحَّة الجســـم يا أخـــي والفراغـــا

كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدَّار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده»[٢].

قيل لبعض السَّلف: طاب الموت، قال «لا تفعل، السَّاعة تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت الدَّهر».

وقيل لشيخ كبير منهم: تحبُّ الموت؟ قال: لا، قيل: ولِمَ؟ قال: ذهب الشباب وشرُّه، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت باسم الله، وإذا قعدت قلت الحمد لله، فأنا أحبُّ أن يبقى لي هذا.

ونحن- ولله الحمد- بقي لنا هذا الآن. فكيف استفدنا من أعمارنا وأوقاتنا؟

(١) الزهر الفائح، ص ١٠.

(٢) إرشاد العباد، ص ١٥.

قال الفضيل: «لا تجعل الرِّجال أو صياءك، كيف تلومهم إن ضيَّعوا وصيتك وأنت قد ضيَّعتها في حياتك؟!»[(١)].

قيل: إن حسان بن أبي سفيان، كان لا ينام الليل، ولا يأكل سمينًا[(٢)]، ولا يشرب ماءً باردًا، فلمَّا مات رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس عن الجنة بإبرةٍ استعرتها فلم أردها لصاحبها[(٣)].

فانظروا في أعمالكم، وحاسبوا أنفسكم قبل انقضاء أعماركم؛ فإنَّ الموت نهاية العمل وبداية الجزاء، والموت قريبٌ لا تدرون متى نزوله، والحساب دقيق لا تدرون متى حلوله، والشَّيب نذير الموت، فاستعدوا له. فكم من مؤمِّلٍ أملًا لا يدركه، وكم من مصبحٍ في يومٍ لا يدرك غروبه، ومُمْسٍ في ليل لا يدرك صباحه.

ولم يغرّنا إلا طول الأمل، ولم يلهنا إلا حبُّ الدُّنيا. فكم نؤمِّل أن نعيش. نرى أنَّ الموت بعيدٌ، والأمل ينسج خيوط الغفلة والتَّقصير!!

كان دواد الطَّائي يقول: لو أمَّلتُ أن أعيش شهرًا لرأيت أنِّي قد أتيت عظيمًا، وكيف آمل ذلك، أنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل والنهار.

مــــاذا تؤمِّــــل والأيام ذاهبـــةٌ

---

(١) السير ٨/ ٣٣٢.

(٢) الزهر الفائح، ص ٦٩.

(٣) العاقبة، ص ٦٧.

ومـــــن ورائـــــك للآمـــــال قُطّـــــاعُ

وصـــــيحةٌ لهجـــوم المـــوت منكـــرةٌ

صُـــمَّتْ لوقعتهـــا الشـــنعاء أسمـــاع

وغصَّـــةٌ بكـــؤوس أنـــت شـــاربها

لهـــا بقلبــــك آلامُ وأوجـــــاعُ[١]

فيا أخي:

اعلم أنَّ العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله[٢].

واعلـم أن الأمـل يكسـل عـن العمـل، ويـورث التَّراخـي والتَّـواني، ويعقب التشغال والقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى.

يا مــــن يعــــد غــــدًا لتوبتــــه

أَعَلَـــى يقـــين مـــن بلـــوغ غـــدِ

المـــرءُ في زلـــلٍ علـــى أمـــلٍ

ومنيــــةُ الإنســــان بالرَّصـــــد

أيام عمــــرك كلُّهــــا عــــدَدٌ

ولعـــل يومـــك آخـــر العَـــدد[٣]

---

(١) العاقبة، ص ٦٨.

(٢) العاقبة، ص ٦٨.

(٣) المدهش، ص ٢٣٢.

قال بعض الصالحين: «دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريضٌ، فقلنا له كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقرًا الآثام، فقلنا له: فما تشتكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة، قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإنابة إلى ما عند الله، والنَّقلة عما يكرهه الله، قال: فبكى القوم جميعًا»(١).

واعلم- رحمك الله- أن مما يعينك على التَّفكُّر في الموت، ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به تذَكّر من مضى من إخوانك، وخلانك، وأصحابك، وأقرانك الذين مضوا قبلك، وتقدَّموا أمامك، وكانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصَّت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، فجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسِّمين وعبرة للمعتبرين(٢).

يا لله مصرعهم، كم فيهم من مجرِّر ذيل إعجابه، متطاول على أصحابه، متعاظم على أقرانه وأترابه، تجمع له الأماني، إن بُصِّر لا يتبصر، وإن أُمِر لا يأتمر، وإن زُجر لا ينزجر، لا يسمع إلا داعي الهوى، ولا يستجيب إلا لمن إليه دعا، يلهو ويفرح، ويمزح ويمرح، ويبيت ممن دنياه مثل ما كان أصبح، قد أبدأ في أمره وأعاد، وأحكم فيه فأجاد، وأشاد من أمله ما أشاد، حتى إذا نال مراده أو كاد صاحت به المنية صيحة الغضبان، وصدمته صدمة اللهفان، فهدت

---

(١) العاقبة، ص ١٢٠.

(٢) العاقبة، ص ٥٠.

أركانه، وكسرت أغصانه، وفرقت أنصاره وأعوانه، فأصبح قد باع النفيس بالدون، وأعطى الثمين بالثمون، ومضى بعضّ بنانه المغبون، لم يَرُح بنائل، ولا حصل على طائل. فنعوذ بالله من سوء الأقدار وسيء الاختيار(١).

فِرّ من الموت أو اثبتْ له لا بدَّ من أنَّك تلقاه

واكتب بهذه الدَّار ما شئته فإنَّ في تلك ستقراه(٢)

لما حضرت عبد الله بن علي الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلَّة عملي للجنَّة العالية، وما ينجيني من النَّار الحامية»(٣).

ربَّما ينفعنا البكاء قبل الفوات وقدوم السَّكرات. وأي عيش يهنأ؟

كما قال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طبيب؟(٤).

لما مرض الربيع بن خثيم ﷺ قالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فتفكَّر وقال: «أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونٌ بين ذلك كثيرًا؟

---

(١) العاقبة، ص ٥٢.

(٢) الزهر الفائح، ص ٢٧.

(٣) العاقبة، ص ١٣١.

(٤) العاقبة، ص ٤٣.

قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوي بقى ولا المدَاوَى، كلٌ قد قضى ومضى»(١).

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٦- ٣٠].

أخي المسلم:

وحـــدَّثتك الليـــالي إنَّ شـــيمتها
تفريــقُ مــا جمعَتْــه فــاسمع الخــبرَا
وكـنْ على حـذرٍ منها فقـد نصـحتْ
وانظــرْ إليهــا تــرى الآيات والعــبرَا
فهــل رأيــتَ جديــدًا لم يعــد خلقًــا
وهــل سمعــت بصــفوٍ لم يعــد كــدرًا(٢)

أيُّها الحبيب... اسمع صوت المنادي وهو يستحثُّ خطاك:

أيُّهـــا الزائـــرون بعــــد وفـــاتي
جـــدثًا ضـــمني ولحـــدًا عميقًـــا
ســترون الــذي رأيــتُ مــن المــو

(١) العاقبة، ص ١١٩.
(٢) المدهش، ص ١٥٥.

ت عيـــانًا وتســـلكون الطَّريقـــا(١)

وقيل إنَّ الحجاج الزَّاهد رآه بعض أصحابه في النَّوم، فقال: كيف ترى حالك؟ فقال: الأمر سهلٌ، وما رأيت شيئًا ممَّا كنت أخاف منه- والحمد لله-.

فنحن نقدم على ربٍّ كريمٍ غفورٍ رحيمٍ، غافر الذنب وقابل التَّوب، لا ربَّ لنا سواه، ولا معبود لنا غيره.

قال مالك بن دينار ﷺ : «رأيت ابن بشار في النوم بعد موته بسنةٍ فسلَّمت عليه، فلم يرد عليَّ السَّلام، فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟ فدمعت عيناه، وقال: لقيتُ أهوالًا وزلازلَ عظامًا شدادًا، فقلت: وما كان بعد ذلك؟ فقال: وما يكون من الكريم، قَبِلَ منَّا الحسنات، وعفا عن السيئات، وضمن لنا الدرجات». ثم شهق مالك شهقةً عظيمةً فخَرَّ مغشيًا عليه.

ونحن نبكي على الموتى، ونتذكر حالهم أحرى بنا أن نتذكَّر حالنا:

ويبكـــي علـــى المـــوتى ويـــتركُ نفســـه

ويـــزعمُ أنْ قـــد قـــلَّ عـــنهم عـــزاؤه

ولـــو كـــان ذا رأيٍ وعقـــلٍ وفطنـــةٍ

لكـــانَ عليـــه لا علـــيهم بكـــاؤه(٢)

---

(١) شذرات الذهب ٤/ ١٢٩.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٢.

أخي الحبيب:

كان الحسن يقول: «ابن آدم، إنَّك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك. ابن آدم، لو أنَّ النَّاسَ كلَّهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرّك معصيتهم. ابن آدم، ذنبك ذنبك، فإنَّما هو لحمك ودمك؛ فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنَّما هي نارٌ لا تُطفأ، وجسمٌ لا يبلى، ونفسٌ لا تموت»(١).

فتدارك الذَّنب بالتَّوبة فإنَّه كما قال بعضهم: وقوع الذَّنب على القلب كوقوع الدِّهن على الثَّوب إن لم تعجل غسله وإلا انبسط(٢)

ووالله إنَّ أيام المعزِّين قليلةٌ. وبعد أيامٍ وشهورٍ ينسى الخليل خليله

إذا انقرضت عنِّي من العيش مدَّتي
فإنَّ عناءَ الباكيات قليلُ
سيعرض عن ذكري وتنسى مودَّتي
ويحدث بعدي للخيل خليل(٣)

أخي الحبيب:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ

(١) الحسن البصري، ص ١٠١.
(٢) المدهش، ص ٣٥٧.
(٣) ترتيب المدارك ١/ ٣٢٤.

وذو نسب في الهالكين عريق

فقل لغريب الدَّار إنَّك راحلُ

إلى منزل نائي المحل سحيق

وما تعدمُ الدُّنيا الدّنيَّة أهلها

شواظ نار أو دخان حريق

تجرع فيها هالكًا فقْد هالكٍ

وتشجي فريقًا منهم بفريق

فلا تحسب الدُّنيا إذا ما سكنتها

قرارًا فما دنياك غير طريق

إذا امتحن الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفت

له عن عدوٍ في ثياب صديق

عليك بدارٍ لا يُزال ظلالها

ولا يتأذَّى أهلها بمضيق

فما يبلغ الرَّاضي رضاه ببلغة

ولا ينفع الصَّادي صداه بريق

لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك، ولا تكحل عينك بنومٍ حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تَبِتْ وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور.

أخي:

إنَّ الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنَّهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم- والله- دارٌ لم يتزوَّدوا منها، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها، فأي ساعة مرّت على من مضى؟ وأي ساعة بقيت علينا؟

أخي:

إن الآمال تُطوى، والأعمار تَفنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغِّب في الباقيات الصالحات.

أخي:

اعمل ما وجدت سبيلًا للعمل، وما دمْتَ في فسحةٍ وَمَهَلٍ، ومهِّد المضجع، ووطِّئ لذلك المصرع[١].

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٨٥.

هديه ﷺ[١]

وكان من هديه ﷺ تعزيةُ أهل الميّت، ولم يكن من هديه أنْ يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا غيره، وكلُّ هذا بدعةٌ حادثةٌ مكروهةٌ. وكان من هديه السُّكونُ والرِّضا بقضاء الله، والحمد لله، والاسترجاع، ويبرأ ممن خرَّق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالنَّدب والنِّياحة، أو حلق له شعره.

وكان من هديه ﷺ أنَّ أهل الميت لا يتكلَّفون الطعام للنَّاس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعامًا يُرسلونه إليهم، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشِّيم، والحمل عن أهل الميت؛ فإنَّهم في شغل بمصابهم عن إطعام الناس.

وكان من هديه ﷺ تركُ نعي الميت، بل كان ينهى عنه، ويقول: **«هو من عمل الجاهلية»**.

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته، وهوَّن علينا سكرات الموت، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وآنس وحشتنا في القبور، وثبتنا على الصِّراط يوم البعث والنُّشور، وحرَّم وجوه آبائنا وأمهاتنا على النار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ص ٥٢٧.

المصادر

[١] إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

[٢] أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.

[٣] إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبد العزيز السلمان، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٤] البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

[٥] بستان الواعظين، للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حقَّقه عبد الحجار.

[٦] تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٧] تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٨] تاريخ عمر، لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

[٩] التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٠] تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.

[١١] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.

[١٢] التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[١٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

[١٤] تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبد الله محمد بن النبجي، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤٠٦هـ.

[١٥] تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبد العزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

[١٦] الثبات عند الممات، أبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق عبد الله الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٧] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

[١٨] جنة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضي، أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار دار البشير، ١٤١٠هـ.

[١٩] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعميم، دار الكتاب العربي.

[٢٠] ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

[٢١] ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

[٢٢] الزراري في ذكر الزراري، لابن العديم.

[٢٣] روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزي، تحقيق د. السيد جميل، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٢٤] زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، حققه شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية، ط٢، ١٤٠١هـ.

[٢٥] كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢، ١٤٠٣هـ.

[٢٦] كتاب الزهد، أبي بكر أحمد ابن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٢٧] الزهد، للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث.

[٢٨] كتاب الزهد، أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٢٩] الزهر الفائح في ذكر من تنزَّه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٠] سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

[٣١] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

[٣٢] شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ.

[٣٣] صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

[٣٤] صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٣٥] طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية، وأخرى دار المعرفة، بيروت.

[٣٦] العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٧] كتاب العزلة، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط١، ١٣٥٦هـ. نشرة عزت العطار.

[٣٨] عقول اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

[٣٩] محاسبة النفس، للحافظ ابن ابي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

[٤٠] مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٠٦هـ.

[٤١] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٤٢] المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصحَّحه د. مروان قباني، دار الكتب العملية، ط٢، ١٤٠٥هـ.

[٤٣] مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميز أ. بلمي، مكتبة ابن تيمية.

[٤٤] مكاشفة القلوب، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

[٤٥] موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.

[٤٦] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

[٤٧] الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

الفهرس